
د. أحمد الطويلي
أعلام من المغرب والمشرق

د. أحمد الطويلي

أعلام من المغرب والمشرق

عنوان الكتاب : **أعلام من المغرب والمشرق**

المؤلف : الدكتور أحمد الطويلي

ر.د.م.ك. : ISBN : 9973-61-099-7

طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

تونس 2006

تقديم

على غرار كتابي «شخصيات تونسية»، أنشر هذا الكتاب عن أعلام يمثلون علامات مضيئة لازدهار الحضارة والفكر والأدب في بلاد المغرب والمشرق، منهم أدباء بلغوا القمّة في الأداء الفني والأدبي ومفكرون عظام ارتقى الفكر العربي الاسلامي على أيديهم. وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين قسم خاص بعدد من أعلامنا المغاربة من التونسيين، وآخر يهم أعلاما من المشرق.

ففي القسم الأول تعريف بملوك الدولتين الأغلبية والفاطميّة بالقيروان وصفحات خاصة بالمعز بن باديس وما تبادله من هدايا مع الخليفة الفاطمي الظاهر، وصفحات أخرى عن ابن خلدون وجوانب خفية من حياته وشخصيته، والتعريف بالشاعرين ابن هانئ الأندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي وابن حمديس الصقلي شاعر الأمراء الصنهاجيين.

وقد عثرت على تأليف للشيخ صالح الكواش خاص بتاريخ تونس فاقتطفت منه بعض ورقات عن فقهاء وعلماء تونسيين من العهد الحفصي، كما يضم القسم دراسة تعرف بأعمال محمد المكي بن الحسين التراثية ونصين أجاز بهما الشيخان محمد

الطاهر ابن عاشور وابنه الفاضل أحد طلبتهما المتميزين وهو أحمد الجلولي. وكنت أجريت لجريدة «العمل» حديثين مع مستشرقين عن الحضارة الأندلسية وعن شخصية أدبية أندلسية هاجرت إلى تونس وقد ضمنتهما هذا القسم.

أما القسم الثاني فيتعلق بهارون الرشيد وعلاقته بشارلمان، والمأمون والحركة الاعتزالية وفلاسفة كبار من أمثال إخوان الصفاء والغزالي وشعراء فطاحل أمثال الصنوبري والأحوص.

وقد عثرت أثناء أبحاثي في المخطوطات والوثائق عن نص كتبه الشيخ حسن العطار عن الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن التاسع عشر، وعن نص رحلة إلى باريس كتبها قديما رحالة عثماني واقتبست من هذه الرحلة نصا يهم تاريخ تأثير المسرح الأوروبي في المسرح العربي وقد ضمنت هذين النصّين كتابي طلبا للإفادة.

أرجو بهذا الكتاب أنّي قمت باستجلاء صفحات ناصعة عن دور هؤلاء الأعلام في تألق الفكر والأدب مغربا ومشرقا وأنّي أمددت أصدقائي وزملائي الأساتذة وأبنائي الطلبة بمعلومات مفيدة والله الموفق للصواب.

أعلامٌ مِنَ المغربْ

ملوك الدّولة الأغلبيّة

قامت الدولة الأغلبية من سنة 184هـ إلى سنة 296هـ أي مدى 112 سنة. وتولّى الحكم في العهد الأغلبي إثنا عشر ملكا، هم:

1) إبراهيم بن الأغلب التميمي العدناني :

هو مؤسّس الدولة الأغلبية التي حكمت إفريقية طيلة القرن الثالث الهجري، والعاشر الميلادي، له شخصيّة قويّة تمتد ولايته من سنة 184 إلى سنة 196، توفّي وعمره 56 سنة بعد أن حكم إفريقية أكثر من 12 سنة. كان واليا على الزاب أي بلاد الجريد، ثمّ ولاّه الرشيد على إفريقية، كان فقيها، حافظا للقرآن الكريم، عالما به، أديبا، شاعرا، خطيبا، كان تلميذا للّيث بن سعد (ت 179) وهب له جلاجل أم ابنه زيادة الله الأول إعجابا به، يوصف إبراهيم بن الأغلب بالرأي الحصيف والبأس والحزم والجرأة والبيان والمعرفة بالحروب ومكائدها.

يقول ابن عذارى عنه : «لم يل إفريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة، ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهد»[1] فطاعت له قبائل البربر وتمهّدت إفريقية في أيامه، وازدهرت الحياة الاقتصادية بها، ابتنى

---

(1) البيان المغرب : ج 1، ص 116.

مدينة العباسية قرب القيروان وشيّد فيها قصرا عظيما وانتقل إليها بحاشيته، وهي تقع على بعد 4 كلم من القيروان، وصارت المقر الإداري والعسكري الرّسمي، وكوّن حرسا من العبيد السود. قمع ثورات عديدة منها ثورة حمديس الذي نزع سواد بني العبّاس بتونس، وثورة طرابلس ثلاث مرّات، وثورة عمران الربعي بتونس ووصل إلى القيروان وملكها وحاصر إبراهيم في العباسية سنة كاملة. وخندق إبراهيم على نفسه واشتهر في أوروبا، وكانت له علاقات مع شارلمان ملك فرنسا.

2) ثمّ تولّى من بعده ابنه **أبو العباس عبد اللّه**، دام ملكه خمس سنوات إلى سنة وفاته عام 201.

3) ثمّ تولى الملك من بعده **زيادة اللّه الأول بن إبراهيم بن الأغلب**، قلّده الولاية المأمون العباسي. كان أبوه قد كلف بتكوينه العلمي والأدبي، فإذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء أصحبهم ابنه هذا وأمرهم بملازمته، يقول المؤرّخون عنه إنه كان أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم بيانا، وكان يعرب كلامه ولا يلحن دون تشادق ولا تقعر، ويصوغ الشعر الجيد[2].

وعرفت ولايته بكثرة الحروب خاصة بينه وبين الجند، وحوصر في القيروان. وفي عهده ثار منصور الطنبذي وملك تونس والقيروان وحاصر زيادة الله في العباسية 40 يوما، وانهزم منصور وقتل غدرا بجربة.

---

(2) الحلّة السّيراء لابن الأبار : ج 1 : ص 163.

كما تم في عهده فتح صقلية سنة 219 بقيادة القاضي العالم أسد بن الفرات. كان زيادة الله يقول : «ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان، وبنياني قنطرة أبي الربيع، وبنياني حصن مدينة سوسة، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قاضي القيروان»[3]. وبالفعل فقد بنى زيادة الله بن الأغلب جامع القيروان بالصخر والآجر والرخام بعد أن هدم الأصل وبنى المحراب كله بالرخام من أسفله إلى أعلاه[4]. وهو الذي ولّى أول قاض حنفي كان يقول بالاعتزال، وكان علماء القيروان يرفضون السلام عليه أو مصافحته وكانوا ينالون منه[5].

وزيادة الله هو الذي طبّق سياسة المأمون الاعتزالية إذ في ولايته، في سنة 212، أظهر المأمون القول بخلق القرآن ثمّ فرضه ابتداء من سنة 213، وأرسل رسائل يأمر الولاة بامتحان العلماء، وينتقدهم فيها ويصفهم بشر الأمة المشركين المنقوصين من التوحيد ورماهم فيها بالجهل والكذب ووصفهم بألسنة ابليس[6].

4) ثمّ تولى الملك **أبو عقال الأغلب بن ابراهيم** : توفّي سنة 226 لسنتين و7 أشهر، وفي عهده استمر فتح الأندلس وقاوم ثورات الخوارج بعدّة أماكن.

5) ثمّ تولّي **أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم**، كتب

---

(3) البيان المغرب لابن عذارى : ص 137 ـ 138.

(4) الحلة السّيراء : ج 1 : ص 163.

(5) طبقات علماء إفريقية : ص 84.

(6) انظر رسالة المأمون في كتب التاريخ. وانظر أسفله فصل المأمون وأرسطو وحركة الاعتزال.

إلى صاحب الأندلس يتقرب إليه فبعث إليه بمائة ألف درهم، وفي أيامه تولى القضاء سحنون سنة 234 بعد أن عزل ابن أبي الجواد وضربه سحنون.

6) ثمّ تولّى **أبو إبراهيم أحمد بن أبي العباس محمد** سنة 242هـ وتوفي سنة 249هـ بقي في الحكم ثماني سنين، كان عهده قصيرا ولكنّه كان ثريّا بالمنجزات العمرانية. بني بإفريقية نحوا من عشرة آلاف حصن، وهو الذي بنى فسقية القيروان، وزاد في الجامع زيادات مهمة منها قبّة البهو والبلاط الأبيض ومحراب الرخام المنقوش، يقول حسن حسني عبد الوهاب في كتابه خلاصة تاريخ تونس : «بنى في جامع عقبة القبة العجيبة الخارجة عن البهو وفرشه بالبلاط الأبيض ونصب به محراب الرّخام المنقوش والمنبر العديم النظير وكل ذلك موجود إلى الآن»[7]. وبنى ماجل القصر بسوسة وأدخل على جامع الزيتونة بتونس تحسينات فنيّة، إذ شيّد فيه القباب وأقام الأعمدة من الرخام وزين الجامع بالزخارف والنقوش في الحجارة .

7) ثم **ابنه زيادة الله الثّاني** وهو لم يتولّ إلاّ قليلا.

8) ثم تولّى **أخوه أبو الغرانيق بن أحمد** تولّى سنة 250، غلب عليه اللهو والشراب وفي عهده تمّ فتح مالطة، توفّي سنة 261.

9) ثمّ تولّي أخوه إبراهيم الثّاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب في منتصف سنة 261هـ، ابتدأ بناء مدينة رقادة سنة 263هـ، كان ظلوما غشوما سفّاكا للدّماء، وسمّي الفاسق، قال عنه ابن

(7) خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب : ص 85.

الأبار: «ارتكب من العدوان وسفك الدماء ما لم يرتكبه أحد قبله وأخذ في قتل أصحابه وكتّابه وحجّابه حتّى أنّه قتل ابنه أبا عقال وبناته، والأخبار عنه في ذلك فظيعة شنيعة». ويقول : «لم يل افريقية قبله أطول عمرا منه في سلطانها، ملك تسعا وعشرين سنة إلاّ خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ليطول به الابتلاء والله يفعل ما يشاء»[8]، ويقول الرقيق إنه أصابه في آخر عمره مالنخوليا أسرف بسببها في القتل فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى، وقتل ابنه ابن الأغلب لظنّ ظنّه به، وافتقد ذات يوم منديلا لشرابه فقتل بسببه 300 خادم. ارتحل إلى صقلية وأقام فيها إلى وفاته سنة 289 واستخلف ابنه عبد الله[9].

10) تولى ابنه **عبد الله بن إبراهيم** أخو محمّد أبي الغرانيق، وقد اعتقل ابنه زيادة الله لما بلغه من اعتكافه على اللذات واللهو وأنه يروم التوثّب عليه، وقتله بعض خدمه في سنة 290 وتولّى مكانه.

11) **زيادة اللّه** : وهو آخر ملوك الأغالبة. أطلق من اعتقاله. يقول عنه ابن خلدون : «أقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين والصفّاعين وأهمل أمور الملك». وقتل أخاه وعمومته وإخوته. وفي عهده قوي أمر الشيعة.

خرج من السجن بعد مقتل أبيه سنة 290 ليتولّى الحكم مدّة ستّ سنين إلاّ شهرين وأياما. قضّى هذه الفترة مثلما قضّى سائر أيام شبابه في الملذات.

---

(8) الحلّة السيراء : ص 172.

(9) انظر «تاريخ إفريقية والمغرب» للرقيق القيرواني تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس 1968.

يقول ابن عذارى : «التزم التنزه على البحر وغيره واتباع اللذات ومنادمة العيارين والشّطّار والزمامرة والضّراطين. وكان إذا فكّر في زوال ملكه وغلبة عدوّه على أكثر مواضع عمله يقول لندمائه : املأ واسقني من القِرب ما يكفيني.

ومن الأصوات التي كانت تغنّيها له إحدى الجواري :

اصبـر لدهـر نـال مـنـ

ـك فهكذا مضت الدّهور

فـرح وحـزن مـرّة

لا الحزن دام ولا السّرور[10]

ويقول القاضي النعمان عنه في «افتتاح الدعوة»[11] :

«فشا عنه شرب الخمر بعينها ولم يكن قبله يعرف بإفريقية شربها، وأظهر الغناء والمعازف، وجمع إليه أهل اللهو والمتخنّثين والمضحكين، وكان لا يقلع عن الشرب ولا يكاد أن يرى إلاّ سكرانا، واتخذ ندماء يتصافعون بين يديه ويفحشون في القول عنه ويأتون ما لا ينبغي أن يذكر فضلا عن أن يعمل به. وكانوا يتخذون له مثانات الغنم منفوخة مربوطة ويجعلها تحت بساطه فإذا دخل عليه الجليل من رجاله فجلس تقعقعت تحته فيضحك أصحابه في كثير من الرقاعة والعبث والمجانة والخلاعة».

وقد فرح الصنعاني الداعية الفاطمي بتولية زيادة الله الحكم،

---

(10) البيان المغرب لابن عذاري : ص 194.

(11) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان : ص 147 ـ 148.

وكان يقول لأصحابه وأنصاره : «هذا صاحبكم وآخر من يحاربكم، وعنه يصير الأمر إليكم إن شاء اللّه تعالى»[12].

وقد صوّر القاضي النعمان من جهته مشهدا من مشاهد الغناء والطرب عند زيادة الله، كان يقول لندمائه إذا فكّر في زوال ملكه وغلبة عدوّه على أكثر مواضع إفريقية ذلك القول المأثور عنه : «املأ واسقني من القرب ما يكفيني».

وكان أحد ندمائه ومن يجرى معه في العبث والخلاعة يقول للمغنّين بأمر من زيادة اللّه : غنّوا وزمروا وحرّكوا ملاعبكم وقولوا بعد فراغ كل بيت تغنّون به من كل قصيدة :

اشرب واسقينا من القِرَب ما يكفينا[13]

وبنى زيادة الله قصرا جديدا برقادة رغم حروبه مع الصنعاني، بنى حوضا مساحته 500 ذراع في 400 ذراع دعي البحر وفي وسطه شيّد قصرا بأربعة طوابق سمي بالعروس[14]. ويوحي إطار هذا القصر بجو ألف ليلة وليلة، كان النبيذ يباع في رقّادة، وكان قصر العروس حافلا بالملذّات والملاهي، أبطالها الأمير وندماؤه والغلمان والجوارى اللاّتي تكوّنّ في المشرق واقتنين بوزنهنّ ذهبا[15]. واشتهر من غلمان زيادة الله الثالث غلام يدعى خطّابا، وضع اسمه على السّكّة، بالدنانير والدّراهم، وذات يوم غضب عليه فقيّده بقيد

---

(12) نفسه : ص 141.

(13) افتتاح الدعوة : ص 183 ـ 184.

(14) الحلّة السّيراء : ص 195.

(15) ص 160 من أطروحة الأستاذ محمد الطالبي عن الإمارة الأغلبية.

من ذهب، وتشفّع فيه صاحب البريد عبد الله بن الصائغ ببيتين عملهما وغنّتهما له جارية :

يا أيّـها الملك الميمون طائره
رفقا فإنّ يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلّـد والأحشاء راجفة
أعيذ قلبك أن يسطو على كبدك

فأطلق زيادة الله الغلام ورضي عنه وأعاده إلى منزلته ووصل عبد الله بن الصائغ بالقيد الذهب[16].

وفي سنة 292 أنشأ مركبا على فسقية القيروان سمّي الجلاّز ونزل على هذا الماجل في شهر ربيع الثّاني[17].

وفي عهد زيادة الله اشتدّت الدّعوة الفاطمية الإسماعيلية كما قويت مقاومتها، ولنا نصوص في «افتتاح الدعوة» وكتب الطبقات عما كان يقال على المنابر وفي المجالس. وكان أبو عبد الله الصنعاني يقابل باللعن والدعوات. ومن الخطب التي كانت تلقى من أعلى منبر القيروان ومنابر المدن التّابعة لزيادة اللّه نصوص حفظها لنا القاضي النعمان في «افتتاح الدّعوة». من هذه النصوص الدّعائية الجدلية هذه الفقرات : «اللهم إن كان هذا الكافر الصنعاني قد استبشرى شره واستمرى مرتعه كافرا لأنعمك مبدّلا لدينك مخالفا لكتابك، اللهم فالعنه لعنا وبيلا، واخزه خزيا طويلا، وأرح منه عبادك، وطهّر منه أرضك وبلادك»[18].

---

(16) الحلّة السيراء : ص 177 ـ 178 والبيان المغرب : ص 195.
(17) الكتاب الأخير : ص 186.
(18) افتتاح الدعوة : ص 61 ـ 62.

وكان أبو عبد الله قد علّق على هذا الدعاء بقوله مقارنا نفسه بالرّسول : «قولهم هذا فيّ كقول مشركي العرب في رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم إذا شتموه إلخ...»[19].

ومن الفقرات الدالة على هذا الجو الملئ بالخصومات العقائدية هذا النص الدعائي : إنّه أوى إلى كتامة بربر أغتام، وجهال طغام، فاستنزلهم واستهواهم واستغواهم، فدعاهم إلى تبديل دين الله فأجابوه، وتحريف سنّة رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم وآله فأطاعوه لجهلهم بالدّين والسّنة... ولأنهم بمنزلة الحمر النافرة، والأنعام السّائمة، فما زخرف لهم قبلوه، وما زيّن لهم اتّبعوه... وانتشر من قبيح انتحاله وأمره وفشا عنه وعرف وأطبق عليه من أتبعه إظهار لعنة أبي بكر وعمر صاحبي رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم وآله وصهريه وخليفتيه وضجيعيه، وعثمان ذي النورين زوج ابنتيه، وطلحة والزبير حوارييه، وجماعة من خيار صحابته رحمة الله عليهم»[20].

وصور لنا القاضي النعمان من آخر فترة من حكم زيادة اللّه مشهدا في رقادة وقد استنفر الناس لمقاتلة الشيعة، قال القاضي النعمان : «وتسارب الناس إليه لطلب العطاء وجعل يجلس في قبة برقادة يقال لها : «قبة العرض وتصب الدنانير بين يديه ويعترض أهل البلدان عليه ويعطيهم العطاء فإذا مرّ به من يرتضيه غرف غرفة من الدنانير بصحفة بين يديه تسع نحوا من خمسين دينارا فيعطيه

(19) نفس المصدر : ص 62.

(20) افتتاح الدعوة : ص 171 ـ 174.

إيّاها، واتصلت الأخبار عنه أنه يعطي بالصحفة فأقبل إليه الناس من كل الجهات ووافته الحشود »[21].

وودع زيادة الله رقادة، وتصور لنا كتب التاريخ في وداعه لها مواقف مؤثرة منها أنه لمّا عزم على الرحيل أخذ في شدّ الأحمال لما خفّ من الجوهر والمال، وحرّك خاصته للخروج معه وهرب على عيون أهله وحرمه وولده فأخذت جارية من جواريه عودا ووضعته على صدرها وغنّته لتحرّكه على حملها :

لم أنس يوم الوداع موقفها
وجفنها في دموعها غرِق
وقولها والركّاب سائرة :
تتركنا سيّدي وتنطلق
أستودع اللهَ ظبيةً جزعت
للبين والبين فيه لي حُرَق

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه[22].

---

(21) نفسه : 179.

(22) البيان المغرب : ص 200 ـ 201. وانظر قصة زيادة الله مع الجواري في فصل عنه في كتابنا : الجواري المغنيات، نشر أسود على أبيض، تونس 1997.

الخلفاء الفاطميّون بالقيروان والمهديّة

1) **المهدي أبو محمد عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن طالب**. ولد بسلمية وقيل ببغداد سنة 260هـ، وتوفي سنة 322هـ.

بويع له برقادة في ربيع الثاني سنة 297هـ، ودعي له بالإمامة بالقيروان بعد أن تولى فيها الأغالبة الحكم 122 سنة، ابتدأ بناء المهدية يوم السبت 5 ذي الحجّة 303هـ وانتقل إليها في شوّال 308هـ. سير ولي عهده أبا القاسم لفتح مصر مرتين، الأولى سنة 301هـ، ملك فيها الاسكندرية والفيوم، وجبى خراجهما وخراج بعض أعمال الصعيد وعاد إلى القيروان سنة 302هـ. والثانية سنة 306هـ ملك فيها الاسكندرية أيضا. قتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس في ذي الحجّة سنة 298هـ وأمر بدفنهما في بستان القصر.

2) **أبو القاسم محمد القائم بن المهدي** واختلف في اسمه عبد الرحمان أو حسن أو محمد، ولد سنة 279هـ وقيل سنة 280هـ. ولي الخلافة في ربيع الأول سنة 322هـ وتوفّي في 13 شوال 334هـ.

ظهر في حياته سنة 332هـ الثائر مخلد بن كيداد أبو يزيد الخارجي صاحب الحمار، وقد تغلب على البلاد في جموع من البربر. وهلك القائم وهو محصور بالمهدية.

3) **المنصور بالله القائم بن المهدي،** هو أبو الطاهر إسماعيل. ولد برقادة سنة 301هـ أو 302هـ، وولي الخلافة في شوّال سنة 334هـ. وتوفي في شوال سنة 341هـ.

تغلب على أبي يزيد سنة 336هـ وأمر بإخراجه على جمل وقد ألبس قميصا وركب وراءه من يمسكه وعليه طرطور وقردان على كتفه، فطيف به سماطات القيروان ثلاثة أيام متواليات ثم أمر بحمله إلى المهدية فطيف به هناك إلى أن مزّقته الرياح. وقد سلخ عند القبض عليه وحشي جلده قطنا وخيطت أوصاله وصار كأنه نائم، وقدد لحمه وملح. كان المنصور يقول : «إن أنا لم آخذ أبا يزيد وأسلخه فلست بابن فاطمة ولست لكم بإمام».

وبعد انتصاره على أبي يزيد رجع إلى المنصورية حيث بنى له فتاه «مدام» قصرا أثناء غيبته.

4) **المعز لدين الله أبو تميم معد بن إسماعيل** : ولد بالمهدية سنة 319هـ، وانتقل إلى مصر في شعبان سنة 362هـ، وتوفي في جمادى الأولى سنة 364هـ.

أغزى جوهر المغرب ففتح عليه، ثم أغزاه مصر فافتتحها في شعبان سنة 358هـ بعد وفاة كافور الإخشيدي وابتنى له جوهر القاهرة فانتقل إليها المعز في آخر شوال سنة 361هـ. واستخلف على إفريقية بلكين أبا الفتوح يوسف بن زيري، ودامت خلافته 24 سنة.

ابن هانئ الأندلسيّ شاعر المعزّ الفاطمي

ولد أبو القاسم أو أبو الحسن محمد بن هانئ الأندلسي بقرية سكون من قرى إشبيلية سنة 320هـ وتوفي قتيلا سنة 362هـ، تلقى العلم والأدب بإشبيلية ثم بقرطبة. واتصل بأمير المسيلة جعفر بن علي بن حمدون بعد أن اشتهر بشعره وأدبه فأكرمه. وحين سمع المعز لدين الله الفاطمي بالقيروان بخبره طلبه منه فأرسله إليه وأقام عنده يسجل مآثره ويخلد أعماله.

وبعد أن توجه المعز لدين اللّه إلى القاهرة، عزم ابن هانئ على اللحاق به فتجهز وتبعه حتى وصل إلى برقة حيث وجد مخنوقا بتكة سرواله، ملقى على جانب البحر لا يدرى من قتله. ولقب بمتنبي المغرب. وعندما بلغ المعز نعيه حوقل وقال : «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر ذلك».

وعندما فتحت مصر على يدي جوهر الصقلي، ووصلت البشارة إلى المعز في منتصف رمضان 358هـ سر سرورا عظيما وأقيمت الأفراح في جميع البلاد أنشد ابن هانئ قصيدة في 72 بيتا أوّلها :

تقول بنو العبّاس هل فتحت مصر ؟
فقل لبني العباس قد قُضِي الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهرٌ
تطالعه البشرى ويقدمه النّصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها
وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت
وأيديكمُ منها ومن غيرها صفر

وكان المعز يغدق على ابن هانئ الجوائز، فأول ما أنشده بالقيروان أمر له بما قيمته ستة آلاف دينار وببناء قصر له. لذلك نجد جل قصائد ابن هانئ في الدعاية لمبادئ الإمامة وعصمتها وخصالها، وفي مدح المعز والتنويه بانتصاراته إلى حد التقديس، ويبدو أن ابن هانئ كان متشبعا بالمذهب الشيعي وكان يكن الود لممدوحه، فكانت تربطه به علاقة حب، يقول :

دعاني لكم ودّ فلبّت عزائمي
وعِيسي وليلي والنجوم الشوابك

وتذكر مدائح ابن هانئ للمعز بمدائح المتنبي لسيف الدولة، وقد طغت شخصية كلا الممدوحين على الشاعرين فامتلأ عملهما الشعري بالتمجيد والتنويه بأعمالهما، وقد وصف ابن هانئ الجيش العظيم الذي خرج لفتح مصر بقيادة جوهر فقال قصيدة في 79 بيتا أوّلها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
وقد راعني يومٌ من الحشر أروع

غداة كان الأفق سدّ بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

ومن شعر ابن هانئ يمدح المعز مدحية تتسم بالغلو يقول فيها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهّار
وكأنّما أنت النبيّ محمّد
وكأنّما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشّرنا به
في كتْبها الأحبار والأخبار
هذا إمام المتّقين ومن به
قد دُوّخ الطغيان والكفّار
هذا الذي ترجى النّجاة بحبّه
وبه يحطّ الأصر والأوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غدا
حقّا وتخمد أن تراه النّار
من آل أحمد كلّ فخر لم يكن
ينمى إليهم ليس فيه فخار

الهدايا بين المعزّ بن باديس والخليفة الفاطمي الظّاهر

مما يذكر في كتب التاريخ أن المعز بن باديس أمير القيروان قد أهدى الخليفة الفاطمي بمصر سنة 420هـ قبل انفصاله عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة وإعلانه البيعة للخليفة العباسي ببغداد سنة 441هـ هدايا منها عشرون جارية «لم ير أحسن قدودا ووجوها وألوانا وأجساما منهن ومعهن جارية تفوقهن، مفردة حسنا وكمالا؛ وعلى نهودهن حقاق فضة»، وثلاثة أرؤس من جياد الخيل الثمينة منها كميت بسرج ذهب من صياغة المغرب وزن ذهبه قنطار، ومن الهدية ألف وخمسمائة ثوب من سائر ألوان الخز المغربي الملّين، ومن الرماح الزان مالا يعد كثرة، ومن الصناديق والأقفاص المملوءة سيوفا، ومن الثياب الصقلي والسوسي ومن العمائم الصقلية عدة ألوف، وألف قنطار شمعا.

أما الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله فقد أهداه من غرائب طرف الهند والصين وخراسان، ومن أنواع الطيب والجوهر وغيرهما ما لا يحد.

وأهداه من الملابس والفرش والأعلام والألوية على القصب

الفضة المجراة بالذهب من سائر الصور كل بديعة وغريبة، وحمل إليه زرافة مليحة الصورة، رائعة الجلال والحلي وبعث إليه في الهدية حسانا جواري مغنيات وراقصات وخيلا عرابا ذات أثمان غالية على أكثرها سروج من الذهب والفضة والجوهر والعنبر والكافور الغريب الصنعة المعدوم المثل. وبعث إليه من الدروع والخوذ والجواشن المذهبة والسيوف المجوهرة ما يعزّ وجود مثله.

وقد احتفل المعز بقدوم هذه الهدية، ومدحه الشعراء خاصة ابن رشيق بقصيدته التي أولها :

عن مثل فضلك تنطق الشّعراء
وبمثل فخرك تفخر الأمراء

ووصف الزرافة وصفا عبر فيه عن إعجابه بها.

وقد عاد المعز بن باديس فأهدى هدية أخرى للظاهر كان فيها أربعة سباع عظام وعشرون كلبا سلوقية، وعدة نمور، وشمع كثير، وجمّ من ثياب الخزّ السوسي والصقلي، وزعفران وعبيد من خدم بيض وسود ورقيق رائع. والمعز بن باديس كما ذكرنا في كتابنا «تاريخ القيروان الثقافي والحضاري» قد ازدهرت في عهده الحضارة وبلغت القيروان الذروة في ازدهار الآداب والعلوم. وكان محبا لأهل العلم، كثير العطاء، مدحه الأدباء وانتجعه الشعراء لما أولاه لهم من رعاية وحظوة وتشجيع وصلات معتبرة. ولد سنة 398هـ وتولى الملك سنة 406هـ وسنه لم يتجاوز العشر سنين، وتوفي سنة 454هـ ودفن برباط المنستير، تولى الحكم حوالي خمسين سنة.

وفي عهده أقبلت عليه الهدايا المعتبرة من مصر والسودان إذ

أهداه صاحبها هدية تشتمل على عبيد وزرافات وغرائب من الحيوانات وذلك سنة 423هـ، وأتته أخرى من ملك الروم سنة 426هـ.

المصدر :

كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، تقديم ومراجعة الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت 1984.



منظر من جامع عقبة بن نافع بالقيروان

عبد الجبّار بن حمديس الصقلّي

من المراجع المهمّة عن عبد الجبار بن حمديس والتي تدرس اتجاهاته الأدبية وتحلل شعره وتميط اللّثام عن كثير من الأحداث التي تتعلق بحياته نذكر كتاب أستاذنا الكبير المرحوم الشاذلي بويحيى وعنوانه «الحياة الأدبية بافريقية في العهد الزيري»، فهذا الكتاب يعرّف من الدرجة الأولى بالحياة الأدبية بالقيروان في العهد الزيري.

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقليّ ولد بسرقوسة Syracuse بصقلية سنة 447هـ الموافقة لسنة 1055م. وغادر صقلية وعمره لا يتجاوز 24 سنة بسبب احتلال النرمان لجزء كبير من صقلية منذ سنة 471هـ/1079م. وتوجه مباشرة إلى إفريقية لكنه لم يبق فيها طويلا، وقصد الأندلس حيث اتصل بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، ثم رجع إلى إفريقية بعد نفي هذا الأمير إلى أغمات جنوب المغرب غير بعيد عن مراكش سنة 484هـ/ 1091م، أو بعد موته سنة 488هـ/ 1095م.

وفي إفريقية أقام ابن حمديس في كثير من المدن : المهدية وتونس وبجاية وصفاقس حيث نزل على عمة أبيه التي هاجرت من صقلية مع أبنائها إليها قبله، وفي كل من هذه المدن مدح أمراءها. فقد مدح في المهدية أمراء بني زيري، تميم ويحيى وعلي

والحسن، وقد تولّوا الحكم الواحد بعد الآخر، وفي تونس مدح أمراء بني خراسان، وفي بجاية مدح بني حماد. وقد قضى ابن حمديس كما ذكر الأستاذ بويحيى أغلب سنوات عمره في الغربة. وتوفي ببجاية حسب إحدى الروايات سنة 527هـ/1132 ـ 1133م، وكان ابنه أيضا شاعرا حسب قول ابن عماد الأصبهاني في كتاب «الخريدة في محاسن الجزيرة».

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين أن ابن حمديس توفي بتونس، وقد جمع ابن حمديس ديوانه بنفسه، وأملاه على أحد الرواة ذاكرا المناسبات التي قيلت فيها بعض القصائد، وبقيت منه نسختان نسخة في مكتبة الفاتيكان بروما، ونسخة أخرى ببطرسبورغ التي كانت تسمى لييننغراد في العهد السوفياتي.

وطبع الديوان أول مرة المستشرق سكياباريلّي عن هاتين النسختين سنة 1897، ثم نشره ثانيا إحسان عباس سنة 1960.

وقد أعد المرحوم زين العابدين السنوسي نشرة للديوان وقفت عليها لكن لم يكتب لها النشر إلى اليوم، وله عن ابن حمديس تآليف نشر منها تاليفان[1].

ويعتبر ديوان ابن حمديس مصدرا مهما عن حياته وبعض الأحداث في عصره خاصة منها المتعلقة بإفريقية، وقد خدم أمراء المهدية الصنهاجيين ومدحهم كما أقام طويلا بتونس والمهدية وصفاقس وبجاية.

---

1) انظر عنهما كتابنا : زين العابدين السنوسي، نشر كاهية، تونس 1997.

ومن الأخبار التي يرويها السلفي في كتاب «معجم السفر» خبر عن ابن حمديس في آخر حياته. يقول: «دخل عبد الجبار بن حمديس الصقلي على صاحب بونة كرامة بن منصور بعد أن كفّ بصره فقال: كيف حال الشيخ؟ فقال: كيف حال من كان صاحب عينين فصارتا غينين فاستحسن كلامه، وقال له: خذ هذه العصا وتعكّز عليها، فمد يده فوجده غلاما باعه بعد ذلك بثلاثين دينارا. ويلاحظ الأستاذ الباحث أحمد بن محمد أبو رزاق في كتابه «الأدب في عصر بني حماد» المنشور بالجزائر سنة 1979 (ص 327) أن السلفي توهم فقال مدينة بونة بينما الأصح مدينة تونس لأنّ كرامة ولي أمر تونس سنة 522هـ.

وحينما ودّع ابن حمديس حبيبته بصقلية وهو في الرّكب إلى تونس سالت دموعه وتمزّق قلبه، وقد نفد صبره وأرسلها أبياتا خاطب فيها توأم نفسه فقال:

فارقتكم وفراقكم صعب
لا الجسمُ يحمله ولا القلب
قُتل البعاد فما أشيرَ به
حتّى تمزّق بيننا القُرب
أمقيمةٌ والرّكب مرتحلٌ
بالصّبر عنك ترحّل الرّكب
كم ذا يزور البحرَ بحرُ أسًى
في العين منك جُمانُه رطب

ما كان نأيي عن ذَراك قِلًى
فيموت بعد حياته الحبّ

عبد الجبار بن حمديس في المهدية :

نجد المهدية حاضرة في شعر ابن حمديس، خاصة في مدائحه لتميم بن المعز وابنه وحفيده، قال في مدحيته ليحيى بن تميم بن المعز :

مَهّدَ في المهديتين العُلَى
وعمّ منه العدل كلّ النّواحي

وفي قصيدة بائية مدح بها ابن حمديس تميم بن المعز الصنهاجي بدأها بقوله :

تدرّعتُ صبري جُنةً للنّوائب
فإن لم تُسالم يا زمان فحارب

ذكر المهدية وأيامه الحلوة التي قضاها بها، وأشار إلى زويلة وهي المسماة بالمهدية الثانية يقول :

لياليّ بالمهديتين كأنّها اللآ
لىء من دنياك فوق ترائب
لياليّ لم يذهبن إلا لئالئا
نُظمْن عقودا للسّنين الذّواهب

ثم يقول مادحا تميم :

إذا شئتُ أن أرمي الهلال بلحظة
لمحتُ تميما في سماء المناقب

وختم القصيدة بالحنين إلى بلده صقلية، إذ لا يغيب معنى الغربة عن جلّ قصائده :

أحنّ حنين النّيب للموطن الذي
مغاني غوانيه إليه جوانبي
ومن سار عن أرض ثوى قلبُه بها
تمنّى له بالجسم أوبة آيب

ويقول ابن حمديس في قصيدة أخرى مدح بها الأمير يحيى بن تميم بن المعز، يعرّف بنفسه بمرارة وأسى :

أنا من صاح به يوم النّوى
عن مغانيه غراب فاغتربْ
طفت في الآفاق حتى اكتملتْ
غربتي واحتنكت سنّ الأدب

ويمكن اعتبار ابن حمديس شاعر الغربة على الإطلاق، وشاعر الحنين إلى الأوطان بعد ابن شرف وابن رشيق وأبي الحسن علي الحصري، وهم يقطر شعرهم بأحزان البعاد عن القيروان بعد خرابها على أيدي بني هلال وسليم هذه القبائل المغيرة والوافدة من الصعيد.

ومن أشهر الأبيات في شعر ابن حمديس في الحنين إلى الأوطان:

ذكرت صقلية والأسى
يجدّد للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت
وكان بنو الظّرف عمّارها

فإن كنت أخْرجت من جنّة
فإنّي أحدّث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البكا
حسبتُ دموعيَ أنهارها
ضحكتُ ابن عشرين من صبوة
بكيتُ ابن ستين أوزارها

ويلاحظ الباحث لسعد إسماعيل شلبي في كتابه «ابن حمديس الصقلي، حياته من شعره» (ص 210) أن ابن حمديس في المهدية قد ارتفعت منزلته لدى بني زيري الصنهاجيين وسمت «عن مكانة شاعر مكتسب يطلب العطاء وينافس الآخرين ليظفر من المال بأوفى نصيب، وربما كان حبه لممدوحيه من أمراء باديس لا يقل عن حبهم له». إذ كانت إقامته بينهم شبه دائمة، وقد أصبح شاعر حضرتهم المتغني بمجدهم المثبت لعرشهم «فأحبه أبناء باديس، ولشاعرنا من المواهب الشعرية ما يجعله أهلا لهذا الحب خاصة إذا قيس بغيره من شعراء المغرب»[2]، وكانت صفاقس أكثر المدن المغربية حظوة بإقامة ابن حمديس فيها «فعرفه أهلها وأحبوه ورأوا منزلته عند علي بن يحيى أميرا وملكا فجعلوه سفيرا عندهم يتحدث بلسانهم وينوب عنهم في بعض عظائم الأمور»[3].

ويقول الأستاذ المرحوم الشاذلي بويحيى عن قصائد ابن حمديس في أمراء بني زيري : «القصائد المصنوعة في مدح أواخر

2) انظر لسعد إسماعيل شلبي : ابن حمديس الصقليّ، حياته من شعره.
3) نفسه، ص 219.

أمراء بني زيري وقد كانوا حماة نيرين لأهل العلم والأدب، يحدوهم الحرص على رعاية هذا الشاعر المتغني بمفاخرهم والمحاط بهالة من الإجلال والتعظيم تشيد بما حققوه من انتصارات عسكرية وبما كان لهم من أبهة وبذخ، وبذلك فإن ابن حمديس سيكون في شعره شاهدا على عصره، يكتسي قيمة ثمينة سواء بالنسبة إلى المؤرّخ بفضل التدقيقات بل وحتى المعلومات غير المعروفة التي يوردها بخصوص أحداث الحقبة التي عاش فيها أو بالنسبة إلى هاوي الفن بفضل ما يزخر به شعره من وصف دقيق حافل دوما بالصور الموحية»[4].

عبد الجبار بن حمديس في الأندلس :

حدّثنا ابن حمديس نفسه في الديوان ص 343 عن رحلته إلى الأندلس واتصاله بالأمير المعتمد بن عباد قال :

«أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلي ولا يعبأ بي حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي وهممت بالنكوص على عقبي، فإنّي لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : أجب السلطان، فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك [أي قرب باب]، وقال لي: افتح الطاق التي تليك. ففتحتها فإذا بكور زجاج [أي مجمرة من طين] على بعد والنار تلوح من بابيه وواقده يفتحهما

4) الشاذلي بويحيي : الحياة الأدبية بتونس في العهد الزيري، تعريب محمد العربي عبد الرزاق، بيت الحكمة، تونس، ج 2، ص 336 ـ 337.

تارة ويسدهما أخرى ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتهما قال لي : أجز :

انظرهما في الظّلام قد نجما

فقلت :

كما رنا في الدّجنّة الأسد»

ثم طلب المعتمد من ابن حمديس إجازة بيتين آخرين ففعل، فاستحسن المعتمد ذلك وأمر له بجائزة سنية وألزمه خدمته.

ويعلمنا ابن بسام في كتابه «الذخيرة» أن ابن حمديس قد دخل الأندلس سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، ومدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه. ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات سمع ابن حمديس له أبياتا عملها في الاعتقال فأجابه عنها (الديوان، ص 631).

وولع ابن حمديس وهو في الأندلس بقرض الشعر في الغزل وفي حضور مجالس الأنس، وقد سأله رجل أديب أن يصف له راقصة على مذهبهم في رقص قيناتهم فأجابه إلى ذلك وهو أن الراقصة منهم تشير بأنملها وهي تغني إلى كل عضو وما يحل به من تعذيب الهوى، فإن ذكرت دمعا أشارت إلى العين، وإن وصفت وجدا أشارت إلى القلب، وهي مع ذلك تعبر عن دلال المحبوب وتذلل المحب بما يليق بها من الإشارات الحسنة، والحركات المنبهة على ما أرادت. يقول :

وراقصة بالسّحرَ في حركاتها

تقيمُ به وزن الغناء على حدّ

تدوس قلوب السامعين برَخصة

بها لقطتْ ما للّحون من العدّ

..وتحسبها عما تشير بأنمل

إلى ما يلاقي كلّ عضو من الوجد

بنا لا بها ما تشتكي من جوى الهوى

وأدمع أشواقٍ مخدّدةِ الخدّ

وقد لاحظ الأستاذ بويحيى أن ابن حمديس يعرف عادة بأنه الشاعر الشهواني الميول الذي تغنى في حذق واندفاع بملذات الحياة على معنى اغتنام العيش قبل فوات الأوان. ومن شعره الغزلي الرقيق :

ملّـني مـن لا أملّـهْ

وأذاب القلـبَ دلُّـهْ

رشـأ يـنفُـر خـوفـا

كلّمـا مـاشـاه ظـلّـه

يا عليل الطّرف، جسمي

نظـرةٌ منـك تَعلّـه

نيط في خَصرك رِدفٌ

عَجَبـي كيـفَ تُقلُّـه

يـا غـزالا حـرّم اللـه (م)

دمـي، وهـو يـحـلّـه

بعضه في أوجه الناس (م)

وفـي وجـهكَ كـلّـه

إنّمــا الحـسنى محلّ
لــك أوأنـــت مـحـلّــه

يقول إحسان عباس في مقدّمة تحقيقه لديوان ابن حمديس عنه :

«لم تنجب مثله صقلية في الشعر (...) هو يمثل ثمرة الشاعرية المغربية في أزهى عصور السيادة السياسية بالمغرب، وقد تأثر بالبيئات الثلاث (أي الصقلية والتونسية والأندلسية)، وحكى أثرها في شعره بناء وموضوعا، فقصائده ترقّ حتى تشبه الطبيعة الصقلية والأندلسية الجميلة في رقتها وعذوبتها وتستطيل حتى تحاكي مباني قرطبة والناصرية سموقا وصناعة، ويسيل فيها ماء الطبع».

ونلاحظ أخيرا حسن أخلاق ابن حمديس ودماثه طبيعته، فهو يصون شعره عن طرق غرض الهجاء، فهو لم يهج أحدا قط، ويتعفف من أن يذم غيره أو يسلقه في شعره، فهو يسمو به على أعدائه ولا يذكرهم بشر، ويكفيه ما يقاسيه من غربة نفسية قاسية، يقول :

عفاف اللسان مقال الجميل
وفسق اللسان مقال القبيح
ومالي وما لامرئ مسلم
يروح بسيف لساني جريح

نص فـريد
عن لقاء ابن خلدون بتيمورلنك

لنا نص فريد عن عبد الرحمن بن خلدون والسلطان تيمور لنك (1370م - 1405م) عثرنا عليه في كتاب طبع في أوائل القرن العشرين بكانفور بالهند عنوانه «عجائب المقدور في أخبار تيمور» لشهاب الدين أحمد بن عربشاه صححه ووضع حاشية له المولوي عبد الله مدرس المدرسة الحسينية في دهاكه، وقد عثرنا عليه في رحلتنا العلميّة إلى حيدرأباد وزيارتنا للجامعة العثمانية بها[1]. لقد تحدث ابن خلدون بنفسه عن لقائه بتيمورلنك في ترجمته الذاتية، لكن نص ابن عربشاه يضيف الكثير ويعلمنا عن مكانة ابن خلدون بين علماء الشام، وإعجاب السلطان تيمور لنك به، خاصة تعلق ابن خلدون بتونسيته، بعمامته الخفيفة، وبرنسه، وأناقته، وبالأخص اعتداده بنفسه وفخره بتجاربه وثقافته السياسية إلى درجة أن تيمور لنك «كاد يرقص طربا» لحديثه، وخصه بعنايته واهتمامه، والأهم من ذلك دقة ملاحظة ابن خلدون وتثبته في شخصية تيمورلنك كأنّه يتلمس أسرار العبقريات.

---

(1) انظر كتابنا : رحلة الشرق والغرب، تونس 2004.

النص :

لما أقلع السلطان [تيمورلنك] بفُلْك عساكره المشحون وقع في بحر العساكر التيمورية قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون، وكان من أعلام الأعيان وممن قدم مع السلطان فلما قتل السلطان وانفرك كأنه كان غافلا فوقع في الشرك، وكان نازلا في المدرسة العادلية، فتوجه هؤلاء الأعيان إليه في تدبير هذه القضية، فوافق فكره فكرهم فملكوه في ذلك أمرهم، وما وسعهم إلا استصحابه معهم، وكان مالكي المذهب والمنظر، أصمعي الرواية والمخبر، فتوجه معهم بعمامة خفيفة، وهيئة طريفة، وبرنس كهور رقيق الحاشية يشبه من دامس فقدموه بين يديهم (كذا) ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم.

وحين دخلوا عليه وقفوا بين يديه واستمروا واقفين، وجلين خائفين، حتى سمح بجلوسهم، وتسكين نفوسهم، ثم هش إليهم، ومر ضاحكا عليهم، وجعل يراقب أحوالهم، ويسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم، ولما رأى شكل ابن خلدون لشكلهم مباينا، قال: هذا الرجل ليس من هاهنا. فانفتح للمقال مجال، فبسط لسانه، وسنذكر ما قال، ثم طووا بساط الكلام ونشروا سماط الطعام فكوموا تلالا من اللحم السليق، ووضعوا أمام كل ما به يليق، وبعضٌ تعفف عن ذلك تنزها، وبعض تشاغل عن الأكل بالحديث ولها، وبعض مدّ يده وأكل، وما جبن في مصاف الالتهام ولا نكل، وإلى الأكل أرشدهم وناداهم وأنشدهم :

كلوا أكل من إن عاش أخبر أهله

وإن مات يلق الله وهو بطين

وكان من جملة الآكلين، قاضي القضاة ولي الدين، وكل ذلك وتيمور يرمقهم وعينه الخزراء تسرقهم، وكان ابن خلدون أيضا يصوب نحو تيمور الحدق، فإذا نظر إليه أطرق، وإذا ولى عنه رمق، ثمّ نادى وقال بصوت عال : «**يا مولانا الأمير، الحمد لله العلي الكبير، لقد شرّفت بحضوري ملوك الأنام، وأحييت بتواريخي ما ماتت لهم من الأيام، ورأيت من ملوك العرب فلانا وفلانا، وحضرت كذا وكذا سلطانا، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها، وخالطت في كل بقعة أميرها ونائبها، ولكن لله المنة إذ امتد بي زماني، ومنّ الله عليّ بأن أحياني، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقه، والمُسلك شريعة السلطنة على الطريقه، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف**».



ابن خلدون

فاهتز تيمور عجبا، وكاد يرقص طربا، وأقبل يوجه الخطاب إليه، وعول في ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك العرب وأخبارها، وأيام دولتها وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خدع عقله وخلبه، وجلب لبّه وسلبه، وكان تيمور في سِير الملوك والأمم أمّه، وأبا التاريخ شرقا وغربا وأمّه (ص 201 ـ 203).

ابن خلدون عاشقا لتونس

يمثل الحنين إلى تونس والتعلق بها وتمجيد حضارتها والتغني بجمالها غرضا مهما في الشعر الراجع إلى العهد الحفصي، فكثير من الشعراء قد عبروا عن غرامهم بتونس، كانوا سعداء بالعيش فيها، وذرفوا الدموع والتهبت قلوبهم بالآهات عندما كانوا بعيدين عنها، وامتلأ شعرهم بالأنين والحسرات لافتقادهم إياها. ويمكن أن نقول إن إمام هؤلاء الشعراء في غرض الحنين إلى العاصمة الحفصية هو ابن خلدون ابن تونس البار.

فقد تغرب عنها في المغرب والأندلس ومصر، وكانت نفسه لا تني تضطرم بلواعج الهوى لمسقط رأسه، وعقله لا يكف عن التفكير فيها، إن القصيدة البائية التي خاطب بها أبا عنان المريني والتي أولها:

على أي حال للّيالي أعاتب
وأيّ صروف للزّمان أغالب

تعج بمشاعر الهوى والحنين إلى عهد الشباب الذي قضاه بتونس، وقد وصفها بمعهد الأنس، وتاق إلى مجالس الطرب فيها وتشوق إلى رؤية حسانها المتحليات بالحسن والجمال، هكذا خفق قلبه بعشقها ولهج لسانه بالدعاء لها فيقول :

رعى الله عهدا ضمّه أفق تونسٍ
ومعهد أنس لم ترعْه النّوائب
وجادت عليه الغانيات بما حوت
من الظَّلْم لا ما تحتويه السّحائب
وروّض منها كل قطر بأغصن
القدود اللواتي لم تثرها الأهاضب

وعندما يذكر ابن خلدون تونس فهو يذكر طفولته بها وشبابه، ويذكر طيب عيشه بها وأمانيه التي تحققت فيها، وياله من رجل كان وفيا للبلاد التي ربته وأنشأته وكونته وسقته من العلم الفياض، وعلمته استعمال العقل والتزام التروي والمنهجية والإخلاص للموضوعية والدأب على الاجتهاد والمثابرة على تلقي العلوم والتعمق فيها، وها هو ذا يعترف بفضل تونس عليه، ثم يسكب قطرات من الدموع لأنه بعيد عنها، فيؤثّر فينا بصدقه ولهجته الوفية للتربة الزكية الطاهرة المباركة التي تنشئ الأفذاذ والعباقرة الأوفياء المخلصين لها يقول :

بلاد بها عقّ الشباب تمائمي
ولامس فيها التّربَ منّي التّرائب
يذكّرني عهدَ الرّضا في جنابها
أمان تقضّت لي بها ومآرب
فاصبو ولكن أين منّي مزارها؟
وأبكي وإن لم تُغْن عنّي السّحائب

ويقلقني شوق تضرّم بالحشا
فتحرقني لولا الدّموع لواهب
أبيت تناجيني الهموم كأنّني
صديق عفا في الحبّ وهي تعاتب

وكثيرا ما تبتدئ قصائد ابن خلدون بالشوق العارم والبكاء والنحيب لغربته وفراقه لأحبابه ونزوحه عن أوطانه وتذكره لعهود قضاها في الأنس بتونس الخضراء، وكلما مدح أو وصف أو استعطف أو أنشد في غرض ديني نجده قد استهل قصائده بالحنين والشوق اللافح والبكاء والنحيب وتذكر الأيام السالفة في الهوى والتمتع بالحبيب :

صحا الشّوق لولا عَبرةٌ ونحيب
وذكرى تُجدُّ الوجد حين تثوب
وقلبٌ أبى إلا الوفاء بعهده
وإن نزحت دارٌ وبان حبيب
ولله منّي بعد حادثة النّوى
فؤادٌ لتِذكار العهود طروب
يؤرّقه طيف الخيال إذا سرى
وتُذكي حشاه نفحة وهُبوب

ونجد عددا من الأبيات تتضمن ألفاظ الشوق وما يتفرع عنها مثل هذه الأبيات :

قدحتْ يد الأشواق من زَندي
وهفت بقلبي زفرةُ الوجد

ألا صنع الشّوقُ الذي هو صانع
فحبّي مقيم أقصر الشّوقُ أوسما

وفي قصيدة ابن خلدون المدحية للسلطان الحفصي أبي العباس أحمد ينوه بقصور تونس المنيفة وما تميز به هذا البلد من مكرمات وعز أثيل ووجوه صبيحة تتحلى بالحياء والبشر والجمال فهذه تونس :

حيث القصورُ الزاهرات منيفةٌ
تُعنى بها زُهْرِ النّجوم وتحفِل
حيث الخيام البيضُ يُرفع للعلا
والمكرمات طِرافها المتهدّل
... حيث الوجوه الغرّ قنّعها الحيا
والبِشر في صفحاتها يتهلّل



ابن خلدون كما تخيله جبران خليل جبران

ابن خلدون والموسيقى

عرّف ابن خلدون في الفصل الثاني والثلاثين من الفصل الخامس الخاص بالمعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، واعتبر فيه الغناء صناعة من هذه الصنائع تقوم على تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة وتوقيع كل صوت ليكوّن نغمة وتتآلف النغمات مع بعضها بعضا وتتناسب فيحدث هذا التناسب لذة عند سماعها، ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه من غير تعلم مثل المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص.

وقد ربط ابن خلدون الموسيقى بفلسفة العمران كما تصورها وأنشأها، ويعتبر الغناء من الكماليات في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي، فلا يطلبه «الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات».

وقد أرخ ابن خلدون كعادته لنشأة الغناء عند العرب وتطوره لديهم فكان لهم أولا فن الشعر، «لهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس كغيره»، ونشأ الغناء في حناجر الحُداة في حداء إبلهم والفتيان في خلواتهم فرجّعوا الأصوات وترنّموا وكانوا

يسمّون الترنم بالشعر غناء، والترنم بالتهليل أو القراءة تغبيرا لأنها تذكر بالغابر. ومن أسماء الغناء السناد في الخفيف الذي يُرقص عليه. ومن التلاحين الهزج والبسيط، هذا ما قبل الإسلام، أما بعد الوحي المحمدي فيقول ابن خلدون : «لما جاء الإسلام واستولوا (أي العرب) على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ ومن ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ، وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم» (ص 358).

هكذا يعتبر ابن خلدون أن الغناء جاء للعرب بتأثير من الفرس والروم، فظهر عندهم مغنون أمثال نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر أساتذة معبد وطبقته، وابن سريج وأمثاله وتدرجت هذه الصناعة عندهم إلى أنه بلغت ذروة الكمال ببغداد في عهد بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد.

ووصف ابن خلدون بإيجاز ما وصل إليه الغناء عند بني العباس خاصة اتخاذ آلات الرقص والتمثيل، ومن مشاهد التمثيل

ببغداد وأمصار العراق وغيرها يذكر ابن خلدون هذا المشهد : «واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرّجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون» (ص 359)، وهو مشهد للرقص الجماعي المنظم الذي يعتمد على سرعة الحركة والزي الموحد والإشارات الدالة على معان خاصة.

وأشار ابن خلدون إلى الغناء بالأندلس في عهده ثم بتونس والمغرب يقول : «وطما منها (أي صناعة الغناء) بإشبيلية بحر زاخر» وذكر زرياب قال عنه : «وكان للموصليين (إبراهيم وإسحاق وحماد) غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل أمير الأندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف» (ص 359). هكذا يذكر ابن خلدون أن زرياب هو الذي أدخل هذه الصناعة إلى الأندلس، وعن طريق الأندلسيين دخلت إلى إفريقية والمغرب بعد أن تطورت وبلغت شأوا فنيا رفيعا.

أعلام تونسيّون من مخطوط لصالح الكوّاش

هذا المخطوط عنوانه تاريخ الكواش، انتهى من كتابته في 24 ربيع الأنور 1172 والشيخ صالح الكواش سمّي بالكواش نسبة إلى حرفة والده، وكان صالح عالما، فقيها، مؤرّخا، شاعرا. ولد سنة 1137هـ وتوفي في شوال 1218هـ. له مجموعة من الأشعار جمعها له محمد السنوسي في مجمع الدواوين التونسية، وكتابه في تاريخ تونس وهو مخطوط بدار الكتب الوطنيّة بتونس رقم 338 اعتمد فيه على كثير من الكتب التاريخيّة المتعلّقة بتاريخ تونس منها تواريخ ابن الشماع والزركشي وابن أبي دينار وكتاب الشيخ أبي الفتح بن سلام وعنوانه «المؤنس في ملوك تونس» وهو كتاب ضائع. ترجم أحمد بن أبي الضياف للكواش في الجزء السابع من «الإتحاف».

ابن قداح[1] :

الفقيه أبو علي عمر بن قداح الهواري، كان فقيها حافظا

1) للمزيد من التعرّف على هؤلاد الأعلام نحيل على الجزء الأول من كتابنا «الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي» حيث قدمنا قائمة ببليوغرافية لكل منهم.

لمذهب مالك، مفتيا، له مشاركة في علم الأصول، ولي قضاء الأنكحة بتونس في كرتين، ودرّس بالشماعية، ولم تطل أيامه في القضاء، وتوفي رحمه الله في عام 734.

ابن عبد السلام :

قال الشيخ ابن عرفة : حدّثني من أثق به لمّا مات القاضي ابن قداح بتونس تكلم أهل مجلس السلطان أبي يحيى في ولاية قاض، فذكر بعض أهل المجلس الشيخ ابن عبد السلام، فقال بعض أهل المجلس الكبار إنه شديد الأمر ولا تطيقونه.

وقال بعضهم : نستخبر. فدهموا عليه رجلا من الموحدين كان جارا له يعرف بابن إبراهم، فقال له : إن هؤلاء امتنعوا من توليتك لأنك شديد في الحكم. فقال له : أنا أعرف الفوائد وأمشّيها. فحينئذ ولّوه من عام 734 إلى أن توفي عام 749 حسبما يذكر بعد.

قال الشيخ البرزلي في تأليفه بعد أن ذكر هذه الحكاية : لعله إنما ذكر ذلك لأنّه خاف أن يتولّى من لا يصلح فوجْه كلامه مانعا منه.

وكان الشيخ ابن عبد السلام عالما ساد بالعلم، ورأس واقتبس من الحضرة ما اقتبس، له التأليف المشهور الذي شرح فيه ابن الحاجب، وكان غيره من شروحات ابن الحاجب بالنسبة إليه كالعين من الحاجب. جمع بين القضاء والخطابة والتدريس والفتوى، وكان يدرس بمدرسة الشماعين. ولما بنت أخت

السلطان مدرسة عنق الجمل طلبت من أخيها السلطان أبي يحيى أن يكون قاضي الجماعة ابن عبد السلام يدرّس بمدرستها فأسعفها، فكان يقسم الجمعة بين المدرستين. ثم إن الحرّة عزلته من مدرستها ونسبته للتفريط وقدمت مدرسا الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد بن سلامة.

ابن عبد الرفيع :

في شهر رمضان المعظم من سنة 733 توفي الشيخ الفقيه العلم أبو إسحاق بن عبد الرفيع قاضي الجماعة بتونس من بيتات التونسيين، ودفن بدار أعدّها لدفنه قرب جامع القصر الأعلى، وجعل بإزائها مكتبا لتعليم الولدان، فكان مولده في ربيع الأول من عام 639، بلغ عمره خمسة وتسعين سنة، منها ثلاثون سنة يتردّد فيها على ولاية القضاء بين تبرسق وقابس، ثم ترقى إلى قضاء تونس فداولها في خمس دول، أولّها في شهر جمادى الأولى من سنة 699، وكانت له معرفة بالوثائق والأحكام، منفذ لأحكامه، غير مهيب للأمراء، مقبوض اليد، سالم العرض، وله تصانيف منها كتاب معين الحكام[2] ومنها الردّ على المتبصر، ومنها اختصار أجوبة ابن رشد، ومنها أجوبة على أسئلة أوردها القاضي أبو بكر الطرطوشي.

ابن البرا :

وفي 29 جمادى الآخرة من سنة 733 توفي بتونس الفقيه

---

2) كتاب مطبوع.

المؤرّخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن علي بن البرا التنوخي، كان إماما بجامع الزيتونة، وخطيبا بجامع القصبة، عدلا، ذا سمت حسن، له عناية بالتاريخ والرواية، اختصر ذيل السمعاني، واقتضب تاريخ الغرناطي، وألف تاريخه على طريقة الطبري مرتبا على السبق من سيد البعثة المحمدية إلى زمنه، أجاد فيه، وتجزئته في ستة أسفار. وكان يجلس لرواية مقامات الحريري بدويرة جامع الزيتونة، وبه استبدل الشيخ ابن عرفة على فعل مثل ذلك، ذكره في مختصره الفقهي وجعله حجّة في العمل مع ما في المقامات من متالف.

قال الشيخ أبو محمد عبد الواحد الغرياني : لما ولي شيخنا القاضي عيسى الغبريني إمامة جامع الزيتونة بعد شيخنا ابن عرفة سألني هل عندي علم في مسند النقارة التي كانت تهز بدويرة الجامع إعلاما بإقامة الصلاة، فأخبرته أنّ أبي حدّثني عن شيخه عبد الله بن البرا هذا أنه كان إذا أتى للجامع أكثر ما يجلس على اصطبل بإزاء باب الجنائز، فإذا رآه المؤذّن هنالك أقام الصلاة وقليلا جلوسه في الدويرة إلا لعذر أو رواية كتاب عليه، فربما لا يعرف المؤذّن هل هو هنالك أم لا، فتجد خَدمة الجامع يهزون تلك النقارة إعلاما بحضوره على وجه الندرة لا على وجه الكثرة، فاستحسن إخباري له بهذا، والتزم طرح نقرَها، وقال : إنّي لم أدرك وجها للخلاص في قفلها، وبقي كذلك إلى أن مات.

ولما ولي بعده الشيخ أبو القاسم البرزلي إمامة الجامع أعاد النقارة اقتداء بشيخنا ابن عرفة إلى أن مات. ومن بعده من أئمة

زماننا بعضهم يتركها كالشيخ أبي الحسن بن محمد اللحياني، وبعضهم لا يتركها.

ابن راشد القفصي :

في ليلة...[3] عشرين من الجمادى الآخرة سنة 736 توفي الشيخ الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد البكري القفصي بمدينة تونس، شارح ابن الحاجب. أصله من قفصة ونشأ بها، وقرأ ثم انتقل إلى تونس وأخذ عن ابن الغماز. ثم انتقل إلى المشرق فلقي أعلاما كناصر الدين بن المنير والأبياري وشهاب الدين القرافي وتقي الدين بن دقيق العيد وشمس الدين الأصبهاني وغيرهم. وأتقن القراءة في المعقولات، وحج وزار، ولما عاد من المشرق قدم لقضاء بلده قفصة فحسد وسلق بألسنة حداد وطرأت عليه غصائص وقدم لقضاء الجزيرة القبلية ثم عزل وأخمل ذكره، وناوأه القاضي أبو إسحاق بن عبد الرفيع فلم يتركه يخرج رأسه إليه طرفة عين حتى لقد منعه الجلوس للوعظ بجامع القصر الأعلى، وقال له : إن دخلته أكسّر رجليك.

فكان ابن راشد يقول : أتمنّى أن أجلس أنا وهو للمناظرة حتى يظهر الحق، ومن هو المتقدّم في العلم، وله تصانيف منها : تلخيص المحصول، ونخبة الراحل في شرح الحاصل، والفائق في الأحكام والوثائق في ثمانية أسفار[4]، والشهاب الثاقب في شرح ابن

---

3) كلمة غير مقرؤوة في الأصل

4) كتاب مطبوع عن دار الغرب الإسلامي.

الحاجب في ثمانية أسفار، والمُذهب في ضبط المذهب في ستة أسفار، وتحفة اللبيب في اختصار ابن الخطيب في أربعة أسفار، والمذاهب السنية في علم العربية، والمرتبة العليا في تعبير الرؤيا[5]، وفي ذلك قال الشيخ ابن عرفة : «حضرت جنازته بعد أن جلس الفقيه الحباب بجبانة مستندا إلى حائط جبانة أخرى وكان بالأخرى مستندا إلى ذلك الحائط الشيخان القاضي ابن عبد السلام والمفتي ابن هارون، فأخذ الحباب في الثناء على ابن راشد وذكر من فضائله وعلمه ما دعاه الحال إلى أن قال : ويكفي من فضله أنه أول من شرح جامع الأمهات لابن الحاجب، وجاء هؤلاء السرّاق ـ وأشار إلى الجالسين خلفه ـ فعمد كل واحد منهما إلى وضع شرح عليه وأخذ من كلامه.



محمد المكي بن حسين

---

5) كتاب مطبوع تحت عنوان «المرتبة العليا في تفسير الرؤيا»، تحقيق سيد عمران، نشر دار الكتب العلمية بيروت 2003.

محمّد المكّي بن الحسين ومؤلّفاته التراثيّة

العالم والأديب والشاعر محمد المكّي بن الحسين ولد في نفطة في ربيع الأول سنة 1301، والده الحسين بن علي ووالدته حليمة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، انتقلت أسرته في عام ولادته من نفطة إلى العاصمة فنشأ في وسط علمي أدبي، والتحق بجامع الزيتونة في شوال سنة 1320 وسنه يقارب العشرين حولا، وكان محبا للعلوم، حريصا على التكوّن، فكان يعمل للفوز بشهادة التحصيل أولا. قال يخاطب نفسه بصورة غير مباشرة :

قل للذي قد راح مشغوفا بتحـ
صيل العلوم هُديت خير سبيل
فاعمد إلى العلم الصحيح فإنّه
نعم العتاد لغاية التحصيل

ولم يكتف بالتحصيل وطمح إلى نيل التطويع وهي آخر شهادة علمية تقدمها الكلية الزيتونية للتطوّع بالتدريس، فيقول بعد أن تحصل على التحصيل :

يا أخا التحصيل لا تقنع بما
نلت من فوز بعلم وأدب

جدّ في السعي لنيل العالمـ
ـية واطلبها فلا خاب الطلب

أخذ العلوم على أيدي شيوخ أجلاّء منهم الشيخ أحمد الحجام أستاذ التجويد برواية قالون، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في النحو والفقه خاصة وأخوه محمد الخضر حسين وعلي الشنوفي في النحو، وأحمد جعيط في الفقه. وقد نوّه محمد المكّي بن الحسين بالجامعة الزيتونية فيقول عنها (ص 146 ـ 147) :

لله جامعة بتونس لم تزل
تزهو ببهجة طالع ميمون
أكرم بها نزلا لمن يبغي صحيـ
ـح العلم من فرض ومن مسنون

يقول عنه زين العابدين السنوسي في كتابه «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» :

«الأستاذ محمد المكّي من شواذ الكادين في سبيل الأدب والمعرفة، فهو مغرم بالأبحاث الفنية الدقيقة في اللّغة وعادات العرب في الأعصر الجاهلية كرّس لها حياته بليلها ونهارها وقيلولتها الطويلة فلا يكاد يفرغ من التنقيب وراء تحقيق الا وقد جمع زمرة صالحة لتحقيق عادات أخرى من عادات العرب».

وفي سنة 1330هـ / 1911م هاجرت عائلته إلى دمشق يتقدمها شقيقه محمد الخضر حسين، وقد شردته الحماية الفرنسية عن تونس فالتحق محمد المكّي بأخيه وانتصب لتدريس اللغة والأدب في مدارس مختلفة منها الجقمقية والكاملية

وغيرهما، وبعد ثماني سنوات من الغربة عاد إلى تونس سنة 1338هـ / 1919م حيث تفرغ للبحث والتحقيق مكتفيا بقليل من المال يأتيه من نخيل للأسرة في مدينة طولقة بالجزائر.

يعلمنا ذلك ابن أخيه علي الرضا الحسيني في ترجمته لحياته في كتيب «محمد المكّي بن الحسين، حياته وشعره» الصادر بدمشق سنة 1991.

ولا غرابة أن ينشأ محمد المكّي بن الحسين وإخوته خاصة محمد الخضر حسين وزين العابدين، محبّين للعلم، متعلقين بالشعر والأدب، وقد عرفت الكثير من نساء عائلة ابن عزوز بولعهن بالشعر، وقد التقيت مرة بامرأة من هذه الأسرة وفدت من نفطة إلى القيروان إلى منزل الشيخ محمد الطاهر بن عزوز زوج خالتي، وأخذت تلقي على مسمعي وأنا طفل قصائد عديدة من نظمها.

ويحدثنا الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتابه المذكور عن والدة محمد المكّي حليمة السعدية فيقول : «كانت أمّا ومعلّمة تلقن صغارها مع لبانها مبادى العلم الشرعية. وهذه التربية المبكرة تعطي جواب السائل عن نشأة جميع أبنائها محمد الخضر ومحمد المكّي وزين العابدين ومحمد الجنيدي والعروسي وعلي وعبد العلي على محبة العلم والاستزادة منه فكانوا جميعا علماء أفاضل» (ص 7).

وفي تونس عرفت مقالات محمد المكّي بن الحسين اللغوية والأدبية المنشورة بمجلات البدر والعالم الأدبي والثريا بالطرافة، والدقة، والاستقصاء. ونشر بتونس رسالتين هما : الأسماء اللغوية

للبحر، عن مطبعة الشريف، تونس 1378هـ/ 1958م وأسماء الكعبة المشرّفة، عن مطبعة التليلي تونس 1368هـ/ 1949م.

توفي محمد المكّي بن الحسين مأسوفا عليه بتونس يوم 20 شعبان 1382 / 26 جانفي 1963.

ونشر الأستاذ علي الرضا الحسيني ديوانه ومجموعة كبيرة من مؤلفاته نحاول تقديمها في هذا الفصل.

* * *

كنت أقرأ للعالم الأديب محمد المكّي بن الحسين مقالاته وأبحاثه في اللّغة والعادات العربية والنوادر والأمثال في مجلات البدر والثريا والعالم الأدبي وفي جريدة الأسبوع وكنت أرى فائدة كبيرة في جمعها ونشرها، لأن في قراءتها متعة وأي متعة، وفائدة وأي فائدة.

وها هو ذا ابن أخيه علي الرضا الحسيني يجمع هذه الأبحاث المنشورة في المجلات التونسية ويضيف إليها الأبحاث المنشورة في مصر وسوريا، ويصدرها في كتب هي ثروة عظيمة وزاد أدبي وعلمي وافر لكل من يحب أن يتكون في اللّغة العربية وأن يتمتع ويستفيد ويتعلم الكثير عن التراث خاصة العادات العربية في كل ميدان.

ونستعرض هذه الكتب المنشورة بدمشق في السنوات الأخيرة :

1 ـ كتاب «**أمثال عربية**» : هو كتاب يقع في 164 صفحة، جمع فيه المؤلف الأمثال حسب المواضيع مثل الحث على الجد

والاجتهاد والاقتصاد واكتساب الحمد والتعاون وحسن الجوار وحفظ الذمار والمودة والوفاء بالوعد وغير ذلك من المواضيع، وهو كتاب كان مخطوطا في مكتبته بتونس، نشره ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني، ويدل على سعة تفقه الشيخ المؤلف في اللّغة والآداب العربية، وله منهج في تقديم هذه الأمثال، إذ يشرحها ويقدم لها الشواهد الشعرية واللغوية والقصص التي نشأت عنها، والمصادر المذكورة فيها بالجزء والصفحة، والمنهج العام هو منهج الاستقصاء والشمول والتدقيق والتحقيق وذكر العديد من المصادر مما يدل على تعمق في البحث وحب للّغة والأدب وتعلق عجيب بلغة الضاد.

2 ـ كتاب «**نوادر في الأدب**» : هذا الكتاب ناتج عن منهج يقوم على الرواية والشرح وتقديم إضافات معتبرة في اللغة والأدب، يقع في شكل تعليقات وتحقيقات وتفسيرات واستدراكات علمية في اللّغة والنحو والآداب والشعر والأمثال والنوادر. يضم هذا الكتاب وهو في أكثر من 270 صفحة مقالات صدرت خاصة بمجلة الهداية الإسلامية ومجلتي العالم الأدبي والثريا التونسيتين وجريدة الأسبوع.

إن قارئ هذا الكتاب وغيره من مؤلفات محمد المكّي بن الحسين ليمكن له أن يقول عن المؤلف إنه جاحظ عصره أو هو مثل إبراهيم الحصري في «زهر الألباب» وسائر مؤلفاته.

3 ـ كتاب «**نوادر في اللّغة**» : قدمه جامعه ومحققه الأستاذ علي الرضا الحسيني بقوله «هذا الكتاب الذي نقدمه تحت عنوان

«نوادر في اللّغة» هو مجموعة من البحوث والمقالات التي نشر بعضها في مجلة «الهداية الإسلامية» وفي المجلات التونسية وبعضها لم يزل مخطوطا في مكتبته بتونس، فجمعتها وحققتها وقدّمت المنشور على المخطوط منها والتزمت بالتسلسل التاريخي للنشر».

صدر الكتاب سنة 1997 في 312 صفحة، ويحتوي على شرح لعبارات ومفردات عربية والاستشهاد لها بالشعر والنثر، وتصحيح لكثير من الأخطاء، اعتمد المؤلف في فصوله على العديد من أمهات الكتب العربية في الأدب واللغة خاصة المعاجم والدواوين. وتدل هذه الأبحاث على تضلع من اللّغة، وتعمق في الدراسة، وقدرة فائقة على الإحاطة بالموضوع وتتبع تفاصيله.

4 ـ كتاب «**أسماء لغوية**» : ضم هذا الكتاب رسالتين كان المؤلف نشرهما سابقا بتونس سنة 1958 وهما رسالة «أسماء الكعبة المشرفة» ورسالة «الأسماء اللغوية للبحر». وقد أعاد الأستاذ علي الرضا الحسيني نشرهما في هذا الكتاب وأضاف إليهما رسائل عديدة ومقالات مختلفة تتعلق ببعض المفردات الخاصة بالمطر والقمر وملابس الرأس وملوك العرب والخلفاء وأصحاب البريد والمسافرين والمرأة الحبيبة إلى آخر ذلك من المعاني. يقع الكتاب في 356 صفحة.

5 ـ كتاب «**عادات عربية**» : يقع في 160 صفحة ويتضمن بعض العادات المتعلقة بالشعراء العرب والعادات العربية في الأعراس والحروب والغزوات والضيافة في الجاهلية والإسلام، وعادات العرب الخاصة بالخيل والإبل إلخ...

فمن عادات «الشعراء العرب التي تميزهم عن سائر الناس أنهم كانوا يلبسون الوشي والمقطعات، وكانوا يخاطبون نساءهم في بداية قصائدهم إذا حضروا، ويخاطبون أخلاءهم إذا سافروا وكانوا لا يتكسبون بالشعر حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلة على شعره. وكان كثير منهم يعملون القصيدة ولا يظهرونها للناس حتى ينظروا فيها ويهذبوها منهم زهير بن أبي سلمى، كان لا يظهر قصيدته إلا بعد حول وتسمى قصائده الحوليات...».

ومن فصول الكتاب، فصل عادات نساء العرب في الأعصر الجاهلية، يذكر منها المؤلف أنهن كن يشاطرن رجالهن كل أنواع المتاعب، ويساعدنهم في كثير من ضروريات الحياة، وكن لا يردن المياه إلا إذا صدرت كل فرقة عنه، فكن يغسلن أنفسهن ويتطهّرن آمنات مما يزعجهن، وكن يرسلن ذيول ثيابهن خاصة في المواسم والأعياد، وكن يتزين بالحناء، ويذررن الإثمد على الشفاه واللثات، كما يتزين باستعمال الوشم وهو نقش بالإبرة في البدن، يحشى كحلا ونؤرا ليخضر. كما كن يتضمخن بالزعفران، يلطخن به ثيابهن، وكن يكثرن من استعمال المسك، كما يلطخن أنوفهن بالطيب إلى غير ذلك من العادات التي استقاها المؤلف من دواوين الشعر وأشعارهم.

ومن فصول الكتاب المهمة ذكر بعض عادات عربية خاصة بالأعراس منها عادة دفع الإبل في الصداق، فيقال ساق إلى المرأة صداقها، ويقال لتلك الإبل النافجة لأنها تعظم مال أبيها. وإذا كانوا

يدفعون الصداق عينا وورقا يقولون بذل لها من الصداق كذا وكذا، أو أصدقها كذا. . .

وللمؤلف ميول لغويّة واضحة، فهو يحاول أن يستقصي موضوعه اللّغوي، فيجمع كل المرادفات والتعابير الخاصة بموضوع ما، وهو كثيرا ما يشرح الألفاظ الحضارية المحملة بدلالات تاريخية مختلفة. فهو يفسر مثلا البناء في الزواج بأن أصلها أنه كان من يريد الدخول من العرب على أهله ضرب عليها قبّة فقيل لكل داخل بأهله بان.

وهكذا يبدو محمد المكّي بن الحسين كما وصفه محقق مؤلفاته غواصا يغوص في بحور اللّغة ويصل إلى الأعماق ليلتقط من اللآلي أغلاها، ومن الجواهر أبهاها، ليقدم إلى القراء فوائد من عيون اللّغة.

6 ـ كتاب « **كلمات للاستعمال** » : يقع هذا الكتاب في 130 صفحات يضم الكلمات التي اقترحها المؤلف للتعبير عن المصطلحات الجديدة في عصره، جاءت مرتبة على حروف المعجم، وجلها كلمات اختيرت من المعاجم وكتب اللّغة ونشر بعضها في مجلة الهداية الإسلامية ومجلة مجمع اللّغة العربية بالقاهرة والمجلات والصحف التونسية والعربية، وبعضها كان مخطوطا في مكتبة المؤلف بتونس. ونلاحظ أن كثيرا من الكلمات المستعملة في تونس قد لاحظ المؤلف استعمالها الشعبي فيقول مثلا عن كلمة البرشاء : « يقال سنة برشاء : كثيرة العشب والبرشاء الناس أو أجمعهم. القاموس قلت : وأهل تونس يستعملون كلمة البرشه كذا بالهاء بمعنى الكثير من كل شيء ».

يتنزل هذا الكتاب في إطار جهود العلماء اللغويين العرب في أواسط القرن العشرين ومستهله، للنهوض باللغة العربية وتحديثها وجعلها مسايرة للعصر عن طريق مجامع اللّغة العربية.

7) **حكم وأخلاق عربية** : كتاب في 368 صفحة، يتضمن مجموعة مقالات يدل العنوان على محتواها. تناول فيها المؤلف مواضيع مختلفة من أخلاق الأفراد والناس. وقد نبهنا إلى هذا الكتاب حفيده للأخ علي الرضا الحسيني في كتابه : صفحات من سيرة الامام محمد الخضر حسين وأخويه زين العابدين ومحمد المكّي، دمشق 2000.

8) **ديوان محمد المكّي بن الحسين** : جمع الأستاذ علي الرضا الحسيني ما عثر عليه من شعر عمه محمد المكّي بن الحسين، ونشر هذا الديوان في 156 صفحة، تتميز مقطوعاته وقصائده بالطرافة خاصة من حيث الموضوع، فالشاعر يهتم بالحياة العلمية بتونس فينظم مقطوعات وقصائد عديدة في الحث على العلم ومكارم الأخلاق ونيل المعالي وغير ذلك من المواضيع الأخلاقية، وهو كثيرا ما ينتقد بعض المظاهر الاجتماعية السلبية فتبدو مسحة ساخرة من أصحاب الأخلاق الدنيئة، يقول مثلا عن المهذار :

كـن مـا استـطـعـت بـمعزل
عـمّــن تـشــمّـــر لـلـهـــذر
لا تـبـــغ صـحـبـتـــه ولا
تأنـس بــه إن كـنـت حــر

ويقول عن المزاح الثقيل :

إن التمــازح بــالقــو
ل السخيـف تـعـجـرف
اربــأ بـنـفـسـك واعـدل
عـن سـيء القـول واكفف
.. فـأقـبـح المـزح مـزح
عــن الصّــواب مـحـرّف

ويقول عن العبوس القمطرير ناصحا وهاجيا :

دع الحمقى وكلّ قطوب وجه
تراه الدهر معدومَ الطلاقه
فتعبيس الفتى أقوى دليل
على ما فيه من خُلُق الحماقه

إلا أن ما يشدنا في هذا الديوان الأغراض الوطنية، فالشاعر يتغنى بالشاشية التونسية وإتقان صناعتها فيقول :

نرى الشاشية الحمراء فازت
بإتقــان بـديـع ليـس ينـكر
إذا ما قـد رأينـاها ذكـرنا
مقال العرب : إن الحسن أحمر

ويتغنى بورد تونس (ص 95) :

نعم الرياض رياض تونس وردُها
من خير ما تجنيه من أزهارها
تلك التي يُغني شميمُ وِرادها
عن شمّ ما تبغيه من نوّارها

ويتغنى بقطار حلق الوادي فيصفه وصفا جميلا اذ بهره وهو يشق الأرض بين بحرين، في مشهد طبيعي رائع :

وقطــار غــادر الخضــرا إلــى
نُزْل حلق الوادي لا يخشى اغتيالا
عُبِّدت مـا بـين بحريـن لـه
خُطَّـةٌ وافـت أديمًـا واعـتدالا
.. يا لَرتـلٍ جـدّ في السّـير وقـد
حفّـه البحـر يمينـا وشمـالا

ويقضي الشاعر ليلة في حلق الوادي، على شاطئ البحر فيمثل هذه الضاحية الجميلة بعروس حسناء، عقدها اللؤلؤي أضواء المنازل المشرفة على الشاطئ يقول :

بشاطئ حلق الواد قضّيتُ قطعة
من الليل والأمواج حولي تَرْعَد
فقلت وأضواء البيوت كأنها
على ساحل الدأماء[1] عقد ممدَّد
أتلك لآل مجّها البحر أم هي الـ
نّجوم تهاوت بانتظام تُنضَّدُ

وينوّه بعمل جمعية قدماء تلامذة الصادقية الثقافي والعلمي والأدبي فيقول في قصيدة «نظرة إلى تونس» مشيرا إلى ناديها الذي كان ومازال ملتقى للأدباء والشعراء والنابهين من رجال الأدب والفكر والسياسة :

---

1) الدأماء : البحر.

وفي «قدماء الصادقية» نهضة

بها سابقوا العرب الكرام ذوي المجد

لقد جدّدوا في الغرب دارسَ ندوة

وباروْا عكاظا والفطاحلَ من نجد

وقد ذلّلوا صعب الخطاب وأسرفوا

طوالعَ عرفان بها الفكر يستهدي

ونشير إلى قصيدة طريفة وردت في الديوان عن كرة القدم، جاءت في 21 بيتا، أولها (ص 121) :

أجلّ شيء به الإنسان يحتفلُ

أن يحفظ الجسمَ لا تثوي به العللُ

يقول فيها :

وإنَّ خيرَ ألاعيبِ الورى كرة

متينة من قطاع الجلد تُعتمل

وقد تبيَّن أن اللاعبين بها

تزداد صحّتهم شدّا وتكتمل

إذا توافوا وقد راحت تداورها

أقدامُهم خلتهم قوما قد اقتتلوا

وإن هي انطلقت في الجوّ صاعدة

ظننتها طائرا في الأفق ينتقل

إذا جرت وجروا في الإثر تحسبها

ظبيا وكلٌّ له في نيْله أمل

إجازة الشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور ووالده محمّد الطاهر للأستاذ أحمد الجلّولي

أمدنا الأستاذ أحمد الجلولي مشكورا بنصي هاتين الإجازتين وهو المعين الثر عن رجالات العهد الحسيني وأحداثه خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، فقد أجازه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور طيب الله ثراه إجازة من موطن الحرمين الشريفين، وهي بخط اليد وذات دلالة على فكره ومشاعره وصلاته بعدد من العلماء، وما أخذه عنهم من علوم وفنون.

تبدأ الإجازة بذكر تحريرها بالمدينة المنوّرة وظروف كتابتها وهي ظروف مؤثّرة، يقول الأستاذ الفاضل :

« رسالتي هذه من المدينة المنوّرة، وقد رجعت إلى منزلي إثر صلاة الجمعة في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف [مارس 1965]، وقد واجهت النبيء صلى الله عليه وسلّم في حجرته الشريفة مسلّما تسليم الوداع وأنا دامع العين، واجف القلب، وقد تحملت للسفر عن طيْبة المطيبة عائدا إلى ثغر جدة، على نية السفر إلى وطني

تونس حرسها الله صباح الأحد السابع والعشرين من الشهر بعد أن قضيت بين الحرمين الشريفين شهرا كاملا، قضيت منه ثلاثة أسابيع بمكة المكرّمة في بحبوحة من الكرامة الإلهية. والأمن الباطني، فاعتمرت وحججت، وطفت بالبيت، ولازمت الجماعة في المسجد الحرام ما استطعت ـ منيبا إلى ربي، مستغفرا لذنبي، جائرا إلى الله تعالى بالدعاء، راجيا منه القبول، سائلا أن لا يجعله آخر العهد ببيته الحرام، ومقام رسوله عليه الصلاة والسلام».

وتوجه الشيخ الفاضل مباشرة للمجاز أحمد الجلولي بقوله :

«إني أجزتك أيها الأخ القريب، الحبيب بن الحبيب[1] بكل ما اتصلت به من الأسانيد والأثبات والمعاجم والمشيخات وبكل ما تلقيته عن شيوخي، شكرهم الله عني بالمشافهة والمراسلة، وبالرواية والدراية لا سيما الإجازات المرفوعة وما تصلني به من الأصول الشهيرة المعلومة».

ثم يذكر الشيخ محمد الفاضل الأساتذة الذين أخذ عنهم خاصة والده الشيخ محمد الطاهر، يقول عنه : «والدي العلامة الكبير المصلح الصادق الشهير، من كان لي شيخا ومربيا وأبا

---

1) هنا تورية بلاغية، والده الحبيب بن علي بن فرحات الجلولي. ولد سنة 1879 وتوفي في 31 جانفي 1957 تولى رئاسة المجلس العدلي بقفصة سنة 1911، والكاف من سنة 1912 إلى سنة 1917 والقيروان من سنة 1917 إلى سنة 1920. وسمّي عاملا بالقيروان من سنة 1920 إلى سنة 1925، ثم بالوطن القبلي 1925 ـ 1933 ثم بباجة 1933 ـ 1935 ثم سمّي عاملا بأحواز الحاضرة 1935 ـ 1938. وتولى رئاسة جمعية الأوقاف سنة 1938 ـ 1940 وسمّي وزيرا للقلم والاستشارة من 1940 إلى 31 ديسمبر 1942، ووزيرا للعدلية من 15 ماي 1943 إلى جويلية 1947 ووزيرا شرفيا من 1947 إلى سنة وفاته.

(...) شيخ الإسلام وإمام العلماء الأعلام»، ويذكر من التونسيين شيخ الإسلام محمد بن يوسف والشيخ عبد الواحد بن إبراهيم المارغني الذي أخذ عنه أصول التجويد وضبط القرآن رواية وأداء.

ومن العلماء المغاربة ذكر الشيخ محمد عبد الحي الكتاني والشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، ومن أهم ما في هذه الإجازة هذه النصائح الثمينة التي ينبغي أن يعمل بها كل طالب علم نحو أساتذته، وأهم نصيحة فيها هي تذكير المجاز بأن «**يعرف ما للسلف الصالح علينا من فضل وأن ندعو لهم بالرحمة والغفران والرضوان وأن نجعلهم قدوتنا فيما تحلّوا به من توخّي الحق، وتحرّي الصدق، وجعل الشريعة الغراء مقياس الأعمال**».

وقد أوصى المجاز بالتحري في رواية الحديث، وحمل النفس قدر الطاقة على التخلي عن المعصية، والتحلي بالطاعة، وأن لا يجعل مفزعه إلا إلى رحمة الله وغفرانه، ولا طمعه إلا في مدد قوته وفيض إحسانه.

ونلاحظ أن الشيخ الفاضل قد حلّى المُجاز بأحسن الأوصاف قال عنه : «أكتب بهذه الرسالة إلى قرة عيني وريحانة نفسي، أخي خصيص قربي وأثير حبي سيدي أحمد بن محمد الحبيب بن علي بن فرحات الجلولي» وكتب الرسالة في 13 ربيع الأول سنة 1385 [12 جويلية 1965].

* * *

وقد حظي أيضا الأستاذ أحمد الجلولي بإجازة من والد

الشيخ الفاضل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. ويذكر الشيخ محمد الطاهر أربع إجازات فاز بها، أولاها إجازة جده والد أمه الشيخ محمد العزيز بوعتور[2]، قال عنه : «**جدي والد أمي وأبي في تربية نفسي وتقويم فهمي**». ويذكر أن إجازته له كانت معضودة بالرواية بالقراءة والضبط والفهم. وقد أخذ عنه كتاب الموطإ وصحيحي البخاري ومسلم.

أما الإجازة الثانية فهي إجازة شيخ الإسلام محمود بن الخوجة والثالثة إجازة الشيخ سالم بوحاجب كبير أهل الشورى للمذهب المالكي، والإجازة الرابعة إجازة المفتي المالكي بتونس الشيخ عمر بن أحمد المعروف بابن الشيخ، أخذ عنه وقد ناهز التسعين وكانت وفاته سنة 1329هـ، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : «**هذه المناهل بعضها يلاقي بعضا حتى يخالها الناظر جداول تخللت روضا وهي وإن كان جميعها صراطا مستقيما، وحقيقا بقوله :**

قد بلونا أبا سعيد حديثا

وبلونا أبا سعيد قديما»

وقد ذكر الشيخ محمد الطاهر أسانيد هؤلاء المشائخ وأوصى المُجاز بالاحتياط في رواية الحديث إسنادا وتفهيما، محذرا إياه من التساهل. وأنهى إجازته بقوله «**أنا محمد الطاهر ابن عاشور التونسي الحسني وكتب في خامس عشر ذي القعدة عام تسعين وثلاثمائة وألف** [ديسمبر 1970]».

2) انظر عن محمد العزيز بوعتور كتابنا : «شخصيات تونسية» تونس 2004 ص 44 ـ 46. وانظر فيه عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والشيخ محمد عبده ص 50 ـ 56.

مع المستشرق الإسباني أوليفر أسين[1]

١

وحديث عن شاعر أندلسي تونسي

كان من بين المشاركين في ندوة الأيام الدراسية الأندلسية بتستور في ماي 1970، المستشرق الإسباني «أوليفر أسين» مدير معهد الدراسات العربية بمدريد وعضو المجمع التاريخي بها والاختصاصي في تاريخ إسبانيا الإسلامية، وقد قام بدراسات عديدة وبحوث في الحضارة العربية بإسبانيا، ونشر كثيرا من الفصول في الفلسفة الإسلامية بالأندلس، وتأثير اللغة العربية في الإسبانية، والهندسة المعمارية الأندلسية. وقد ساهم يوم الخميس 14 ماي 1970، في أعمال الندوة بإلقاء محاضرة حول شاعر تستوري هاجر

من الأندلس إلى تونس، وهو إبراهيم التيبلي، وكان لي معه لقاء ومنه هذا الحديث :

س : لقد تحدثتم عن قصيدة لهذا الشاعر الأندلسي التونسي إبراهيم التيبلي، هل عثرتم على مخطوطة أخرى له، أو لغيره من الشعراء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس؟

ج : لقد تحدثت في عام 1932 بمجمع التاريخ بمدريد عن مخطوطة عثرت عليها لكاتب روائي باللّغة الإسبانية وفد إلى تونس

1) نشر هذا الحديث في جريدة العمل، يوم 24 ماي 1970 .

مهاجرا ويعرف بأكبر المسرحيين الإسبان. وهو مطلع اطلاعا جيدا على تاريخ الأندلس وأدبها نثرا وشعرا. وهناك مخطوطات كثيرة أخرى كتبها بعض الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس تعطينا فكرة عن أحوالهم عند قدومهم إلى بلاد المغرب عموما وتونس خاصة. وقد قمت أنا بتحقيق مخطوطة تكثر فيها الكلمات والعبارات العربية والآيات القرآنية، وصاحبها هو الذي تحدثت عنه في الندوة، وهو شاعر من تستور، وأصله من مرسية، من منطقة تدعى التيبلية، وإسمه خوان بريز، واسمه العربي إبراهيم التيبلي نسبة إلى التيبلية، فقد دبج قصيدا يحتوي على 20 000 بيت بالإسبانية، وبأحرف عربية فهو يتكلم بالإسبانية، وقد كتب أشعارا أخرى.

س : ما الذي تفيده دراسة هذه القصيدة؟

ج : يقول هذا الشاعر إنه من تيبلة وإن له أصدقاء عديدين ببلدة قلعة النارس وهي تبعد حوالي 30 كلم عن مدريد، وقد كتب هذه القصيدة لتفسير الديانة الإسلامية لمواطنيه من تستور الذين هاجروا من الأندلس ويتكلمون بالإسبانية وتكاد المسيحية تستولي عليهم. فأراد إبراهيم التيبلي أن يعلمهم دينهم، ويشرحه لهم، ويدحض التعاليم المسيحية، ويحثهم على اعتناق الدين المحمدي، ولقد أتيت بهذه القصيدة معي، وفي رأيي أنه قد حان الوقت لطبعها إما في تونس أو في إسبانيا، وترجع مهمة نشرها للتونسيين أو للإسبان لأن هذا الشاعر يعرف جيّدا الفلسفة الإسلامية، وعالم في دينه إذ هو يذكر خاصة الغزالي ويهدي

قصيدته إلى النبي محمد والخلفاء الراشدين. فهذه الرسالة هامة، كتبها إلى أصحابه بتستور وبإسبانيا سنة 1636 يحدثهم فيها عن الإسلام، فهو يعرف الدين المسيحي فيؤلّف 20000 بيت لدحض التعاليم المسيحية ويتحدث عن صلاة الكنيسة، وبعض الشعائر الأخرى.

س : هل هناك وثائق أخرى من هذا النوع؟

ج : نعم هناك أندلسيون آخرون ذهبوا إلى المغرب ومنهم من كتب رسالة تتضمن معلومات ثمينة عن مهاجري الأندلس، كما أن لي شخصيا مخطوطة أخرى من هذا النوع. أما هذه المخطوطات فهي توجد بمكتبة مجمع التاريخ بمدريد، وبالمكتبة القومية بإسبانيا وعند بعض الخواص.

مع المركيز دي لوسويا[1]

وحديث عن الفنّ في الأندلس

- الفنّ العربيّ هو أكثر روحانيّة من الفنّ الأوروبيّ

- أجمل الأبنيّة في العالم جامع قرطبة وقصور الحمراء

في نطاق التبادل الثقافي بين تونس وإسبانيا، وبدعوة من اللّجنة الثقافية القومية، ألقى المركيز دي لوسويا محاضرات عن الفن العربي وتأثيره في الفن الإسباني وتأثير الفن العربي في الفن بأمريكا اللاتينيّة وكذلك عن قصر الحمراء. وهذه الزيارة لتونس من شأنها أن تدعم العلاقات الثقافية بين تونس وإسبانيا خاصة وأننا نتشوق إلى معرفة ما شاده العرب هناك من حضارة ومجد خدمة للإنسانية، فنحن دائما نذكر كيف خرج طارق بجنوده الصناديد من القيروان وكيف فتح تلك الأراضي الخضراء الشبيهة بأراضي تونس، وكيف كان ولاتها يسمون من القيروان، ثم تألقت فيها الحضارة تألقا باهرا مع عبد الرحمان الثالث خاصة وأشعت المعرفة والثقافة منها على أوروبا وكانت هذه في دياج كثيفة[2].

---

1) أجري هذا الحديث للملحق الثقافي لجريدة العمل ونشر في صفحة أدب وثقافة يوم 19 ديسمبر 1969.

2) انظر عن وجوه من الحضارة بالأندلس كتابنا «رحلة الشرق والغرب» الصادر بتونس سنة 2004.

وامتازت الثقافة الأندلسية بما أخرجته للعالم من فلاسفة وعلماء، وأدباء، وشعراء، وامتازت امتيازا أصيلا معتمدة خصوصا على العقل والتفكير، والذوق السليم.

والتقيت بالمركيز دي لوسويا، ليحدثنا عن الأندلس وعن آثارها العربية، وعن خصائص فنها المعماري.

س : هل لكم أن تقدموا نفسكم لقراء الملحق الثقافي لجريدة العمل؟

ج : أنا شيخ إسباني، أستاذ قديم في تاريخ الفن، ولكني الآن متقاعد، وأنا أيضا دكتور بالمعهد الإسباني وهو مجمع المجامع العلمية بإسبانيا، ومستشار أعلى لرئيس الدولة.

س : ما رأيكم في العلاقات الثقافية بين تونس وإسبانيا؟

ج : إن إسبانيا وتونس بلدان شقيقان، ونجد في إسبانيا أساسا لثقافة عربية إذ أننا نعلم أن العرب كانوا لمدة ثمانية قرون يسودون في إسبانيا حيث توجد أجمل الأبنية في العالم وهي جامع قرطبة وقصور الحمراء، فالروح العربية دائما تجدها في أعماق الروح الإسبانية، وإسبانيا كانت ميدانا لمعارك بين الشرق والغرب، وفيها أنواع عديدة من الفنون، أوروبية ورومانية وقوطية في عصر النهضة. ولكن في كل الأبنية الأثرية الإسبانية دائما طابع عربي، وهذا هو موضوع محاضرتي يوم الثلاثاء.

س : فما هي أهم خصائص الفن العربي عامة والأندلسي خاصة حسب رأيكم؟

ج : الفن العربي هو أكثر روحانية وباطنية من الفن الأوروبي،

فالمظهر الخارجي فيه للبناءات أبسط ولكن داخلها بديع، وبالعكس من ذلك في أوروبا، هم يعتنون بالمظهر الخارجي وأشكال البناء. والزخرفة الأوروبية واقعية مستوحاة من الطبيعة، وأما الزخرفة الإسلامية فهي روحية، ولم تكن واقعية بالمرة، تستوحي من الهندسة وعلم الخط والأشكال النباتية والخطية. وفي الفن الأوروبي يزخرف جزء من البناية فقط مثل رؤوس الأعمدة والأبواب والنوافذ ولكن في الفن العربي يزخرف كل البناء، فالحائط مثلا كلوحة موشاة.

س : ما هو السبب؟

ج : السبب هو أن أوروبا يقع فيها البناء بأحجار جيدة، ويتركونها هكذا بدون طلي أو تغطية، أما الفن العربي فيستعمل فيه مواد فقيرة من ياجور وتراب ولوح، ولهذا يغطونها بزخرفتها، ويستعملون في ذلك الجبس واللوح النفيس.

س : للفن العربي بإسبانيا خصائص ينفرد بها؟

ج : لنا فن عربي أصيل بإسبانيا، بقرطبة وإشبيلية وغرناطة ولكن هناك أيضا امتزاج هام للفن العربي بالفن الأوروبي. فبعد فتح العرب لإسبانيا في القرن الثامن، أقام خلفاء قرطبة أبنية رائعة جدا، لكن المسيحيين آنذاك كانوا يمثلون جزء لا بأس به من السكان، وكان هؤلاء المسيحيون يسمون Mozarabes ويحتفظون بديانتهم وعاداتهم غير أنهم يخضعون للسلطة الغربية وقد بنوا كنائس عديدة متواضعة ولكنها متأثرة كثيرا بالفن العربي.

وبداية من القرن الحادي عشر تغير النظام، واحتل المسيحيون البلاد، وانقلب الوضع وصار المسلمون يخضعون للمسيحيين ويسمون «الموريسك»، وكانت لهم في كل المدن الإسبانية أحياء خاصة بهم، وكانوا يشتغلون في البناء وبنوا للنصارى بناءات كثيرة من كنائس وقصور وديار فخمة. فالأشكال أوروبية لكن البناء والزخرفة عربيان، ففي إسبانيا وحتى في أمريكا اللاتينيّة الإسبانية كثير من الأبنية العربية التي تطبع البلدان الإسبانية بطابع خاص مثل مدينة طليطلة.

س : ما هي أهم الآثار العربية في إسبانيا في نظركم؟ وماذا بقي منها إلى الآن؟

ج : بقي لنا من العهد الأموي جامع قرطبة الكبير وقصور مدينة الزهراء وجامع صغير بطليطلة. ومن عهد الطوائف، بعد سقوط خلافة قرطبة، بقيت قصور الجعفرية بسرقسطة، وقصور قاليانة بطليطلة ولم يخلف المرابطون شيئا، بينما الملوك الموحدون تركوا بناءات بديعة كبرج جامع إشبيلية الذي هو ربما يعد أجمل برج في العالم العربي.

وبعد غزو الأندلس من طرف الملك فرديناند الثالث في القرن الثامن بقيت في أقصى الجنوب الشرقي من إسبانيا مملكة إسلامية، هي مملكة غرناطة، وأنشأ ملوكها أنواعا معمارية باهرة، مسهبة للعقول، توحي بقصور ألف ليلة وليلة، وبقيت أبنية ثانوية من هذا العهد غير أن التأثيرات العربية بالغة الأهمية في الفن الأوروبي حتى القرن الثامن عشر.

س : هل هنالك تغييرات أدخلت على هذه الأبنية العربية؟

ج : إن مدينة طليطلة بقيت كلها مدينة عربية، وتجد دائما شيئا من الروح العربية في كل الأبنية الإسبانية لكن في القرن الثامن عشر، بعد تولي أسرة بوربون الحكم، أصبح الفن الإسباني أوروبيا، وانمحى الأثر العربي.

س : بماذا تختص الروح العربية في نظركم؟

ج : الروح العربية روحانية قبل كل شيء، وتتشبث بالأحلام، وهي مثل الروح الإسبانية روح شاعرة غيبية، ونحن نهتم بالروحانيات أكثر من الأمور المادية.

س : واللغة العربية في إسبانيا؟

ج : في اللغة الإسبانية كلمات كثيرة عربية، وكثير من الإسبان يتكلمون بالعربية من غير أن يشعروا، فمثلا إذا صممنا على شيء نقول : «أو الله» أي إن شاء الله. والاستشراق في إسبانيا حركة نشيطة فهنالك مستشرقون كبار، أخصاء في اللغة والأدب بالعربية. كما أن العربية تدرس في كافة الكليات الإسبانية، يوجد في غرناطة معهد عال للدراسات العربية. ومن بين المستعربين نذكر الأب أسين الذي درس التأثيرات العربية في الكوميديا الالهية. والسيد قوميز مورينو وهو أستاذ في الآثار العربية، والسيد تورخين يلباس وخاصة قارسيا قوميز مترجم الشعر العربي إلى الإسبانية.

س : ألقيتم محاضرة عنوانها «تأثير الفن العربي في الفنون بأمريكا اللاتينيّة» هل يمكن أن تقولوا في كلمة مدى ذلك التأثير؟

ج : نذكر خاصة أمريكا الوسطى وأميركا الجنوبية ما عدا المكسيك والتأثير العربي فيها قليل، أما كولومبيا، والبيرو، وبوليفيا فلها طابع عربي، وهي بلاد الزلازل، والفن المعماري العربي يلائمها لأنه فن مرن وخفيف.



البرج القديم بالمهدية

أُعلامٌ مِنَ المشرق

هديّة هارون الرشيد إلى شارلمان

بعث شارلمان إلى هارون الرشيد رسولا يقرئه السلام ويلتمس منه رعاية حجاج بيت المقدس من النصارى، فطمأنه الرشيد وبعث إليه برسول مصحوبا برسالة وأهداه فيلا عظيما أبيض كان عند والده المهدي أرسله له بعض ملوك الهند، وأقمشة فاخرة من الوشي المنسوج بالذهب، وبسطا من ديباج طبرستان، وعطورا من اليمن والحجاز، ومسكا وصندلا وأعواد ند من الهند، وسرادقا عظيما مجللا بأنواع الحرير، مساميره من الذهب الملبّس بالوشي، وساعة كبيرة من عمل صناع بغداد، وشطرنجا بديعا اتخذت أدواته من العاج المنقوش صنعه نقاش يدعى يوسف الباهلي ورسم اسمه على الشاه، أما الفيل فيلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندي قد أخذ زمامه ومن حوله ثمانية فرسان هم البيادق الذين يناضلون عن الشاه، وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك متوج بتاج مثل تيجان ملوك حمير. قال جميل المدوّر صاحب كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» : «قد أظهر هذا الرسام في تصويره من الحذق ما يستحق عليه الثناء لأنه مثّل أصحاب الفيلة كما هم وجعل في آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم

القراطق وهي لباس الهنود، واتخذ عُدد الخيل مزخرفة وصنع لهم السروج والأزمة والركائب، وقلّد الفرسان شيئا من السلاح ما عدا الجندي الذي أخذه الفيل بخرطومه فإنه يعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه وقد طرح سلاحه إلى الأرض وعليه سمة التوجع والانكماش مما يشهد للمثل بأنه من مهرة الصناع».

وسافر الرسول من بغداد إلى مرسيلية سالكا طريق الكوفة ثم دمشق ثم بيروت. وكان الرسول مصحوبا برسول شارلمان، يقول الرسول الفارسي : «وكان مسيرنا في غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال».

ومن بيروت ركب الرسول البحر ووصل مالطة ثم مرسيلية التي يقول عنها : «ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئا من زخارف البنيان، ولا وجدنا في أهلها أثرا من محاسن العمران، لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الانبرذور أهل جاهلية وخشونة (...) وليس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبني على علوة تشرف على المدينة يظهر أنه كان مسكنا لبعض أمراء الجاهلية وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الأنبرذور».

ويقول الرحالة المبعوث في مهمة إلى شارلمان : «أين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعايش بين أيديهم واحتذائهم أشرف السنن العادلة فكأن الله تعالى قد خصّ هذه الأمة من الفضل والنعم بما حرم منه أمم الغرب، فإن العرب أحلى منهم وأحلم، وأعلى وأعلم، وأقوى وأقوم، وأعطى وأعطف، وأحصى وأحصف، وأشرى للفخار وأشرف، وأنفى للعار وآنف».

لكن الرسول عندما وصل إلى مرسيلية علم أن شرلمان مقيم في مدينة روما ليلتقي بالبابا وأنّه ستطول غيبته هنالك. فعزم على اللحاق به وموافاته بروما، وتوجّه إليه عبر البحر، ولقيه فيها في محل البابا بالفاتيكان الذي وصفه بقوله : «هو قصر بل قصور قد جمعت بين الفخامة والإحكام».

ووصف رسول هارون الرشيد شارلمان بهذه الصورة : «لما دخلت عليه وجدته جالسا على منصة من فوقها قبّة عليها كتابة بالرومية وهي مجللة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وفي يده قضيب الملك وعليه حلّة من الوشي كأعظم ما يكون من حلل الملوك وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب والأعمدة».

ويعلمنا الرسول أنه مثل بين يديه وبلّغه سلام الرشيد على لسان المترجم، فشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا، وأشار إلى الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد والتي يطرفه بها لارتباطهما بالمودّة فشكره على ذلك مرة ثانية ثم استدناه وأمره بالجلوس وأخذ يسأله عن رحلته إليه وعن دولة الرشيد، ورغب في أن يختلي به وينفرد فأجابه إلى ذلك وبلّغه الرسالة وتفاوض معه في شأن سياسة الرشيد إزاء الأمويين بالأندلس وسياسة شارلمان إزاء ملوك القسطنطينية لأنه يريد الاستيلاء عليها.

وبقي الرسول ثلاثة أيام بروما يتجوّل بين كنائسها وقصورها، وأقام له شرلمان وليمة حضرها أكابر دولته، وأهداه خاتما من ياقوت، وطلب منه أن يسافر إلى تونس ليوجه إليه منها رمة قديس. فقبل ذلك وسيّر شارلمان في صحبته مركبا من أسطوله ليحملها إليه.

يقول الرسول عن وصوله إلى تونس في رمضان سنة 185هـ «إني لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتي وأخرج إليّ زورقا حملني عليه إلى المدينة لأن البحر يبعد عنها نحو عشرة أميال وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي بإخراج الرمّة التي أوصاني بها القيصر إلى مركب الروم».

وقام الرسول بمهمته ثم رجع إلى الإسكندرية عن طريق البحر ومنها إلى الفسطاط فأسوان ثم عيذاب ثم دمنهور ومدن أخرى إلى أن وصل جدة لموافاة الرشيد بالمدينة المنورة حيث استقبله الخليفة. يقول الرسول: «فلما وقفت بين يديه بادرني بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلّمني به الانبرذور فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر والغرب وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر لي ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به من قبل» والسبب في جفاء الرشيد للرسول الفارسي متصل بنكبة البرامكة.

والسؤال ماذا بقي من هدية هارون الرشيد إلى شارلمان ولم تكن هدية الشطرنج للعب وإنما تمثل رموزا لكبرها وضخامتها؟

ولنا رسم في كتب التاريخ يمثل استقبال ملك الافرنج لرسول الرشيد نري فيه فيلا وتحفا عديدة منها مرآة وساعة وإناء زهور وقنديل.

وفي كتاب «شطرنج شارلمان» لميشال باستورو نرى بقايا قطع من هدية الرشيد بعضها يوجد بالمكتبة الوطنية بباريس وآخر

بمتحف بفلورنس وفي دير سان دوني، ونعلم من خلال هذا الكتاب أن المسلمين هم الذين نقلوا الشطرنج إلى أوروبا عن طريق هارون الرشيد ثم عن طريق الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، وتوجد قطع من الشطرنج ترجع إلى العهد الوسيط.

ونعلم من خلال هذا الكتاب أيضا أن الملك لويز التاسع كان يكره لعبة الشطرنج، وأنه ألقى في البحر القطع الشطرنجية التي كان أخوه يلعب بها في المركب.

* * *

شارلمان هو ابن بيبان لوبرف PÉPIN LE JEUNE ملك الافرنج، ولد في 2 أفريل 742م، وكان والده يأخذه معه في حروبه وكانت مملكة الافرنج مكونة إذاك من بلجيكا وهولندا وجزء من ألمانيا الغربية وسويسرا الحالية. وعند وفاة والده يوم 24 سبتمبر 769م تقاسم شارلمان هذه المملكة مع أخيه كرلمان CARLOMAN، ثم استولى على كامل المملكة إثر وفاة هذا الأخ، وصار ملكا على مملكة الإفرنج.

وفي ربيع سنة 774م نهض شارلمان إلى إيطاليا محاربا وأضافها إلى مملكته، وحاول أن يحتل جزءا من الأندلس في 19 أفريل 778م عندما استنجد به حاكم برشلونة لمقاومة أمير قرطبة واعدا إياه بتسليمه عددا من القلاع. وهيأ شارلمان جيشه لنجدة هذا الحاكم لكن بلغته وهو في الطريق إلى الأندلس أنباء عن ثورة حدثت في بلاد الساكس الألمانية فتوجه إليها لمقاومة الثائرين ودامت الحرب سنوات.

وفي 25 ديسمبر 800م توّجه البابا ليون الثالث إمبراطورا.

واشتهر شارلمان أنه الذي أنشأ المدارس بفرنسا، وكان أميا، تعلّم القراءة لكنه لا يكتب. وقد أصدر مرسوما يأذن فيه الكنائس لفتح المدارس لتعليم الحساب والأناشيد والنحو. ولم يكن يوجد إذاك ورق ولا حبر فكان التعليم شفويا، وترسم المعلومات على الشمع باستعمال قطع من حديد.

أما الحساب فكان يعلّم بالأصابع، فثلاثة أصابع من اليد اليسرى تدلّ على الوحدات، والإبهام والسبابة يشيران إلى العشرات بمختلف حالاتهما، أما المئات فباستعمال السرة وعظم الساق. وكان العقاب بالسوط عقابا شديدا، ولا استراحة للتلامذة الا مدى ساعة واحدة في الشهر.

ومن الشائع عن شارلمان أنه منع بناته من الزواج ليبقين بقربه. وكان تقيا وتزوّج خمس نساء، وتسرّى بأربع جوار، وله خمسة عشر ولدا وتوفي في 22 جانفي 814.

أما هارون الرشيد فقد توفي سنة 193هـ، يذكر عنه ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقا في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» أن دولته كانت من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا، وأوسعها رقعة مملكة، جبى الرشيد معظم الدنيا ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة، وكان شاعرا راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيبا عند الخاصة والعامة.

أما السيوطي فيذكر في كتابه «تاريخ الخلفاء» أن أيام الرشيد كانت كلها خيرا كأنها من حسنها أعراس، ووصفه بأنه كان أبيض طويلا جميلا مليحا فصيحا، له نظر في العلم والأدب.



هارون الرشيد



شارلمان

المأمون وأرسطو وحركة الاعتزال

المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة 170هـ وتوفي سنة 218هـ، استقل بالحكم سنة 198هـ بعد مقتل أخيه الأمين، تكون في العربية والفقه والتاريخ وأيام العرب، وعني بالفلسفة والعلوم خاصة منها الطب والفلك. جمع إليه من كل مكان العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللّغة والأخبار والأنساب والشعراء. وقد اشتهر بالفصاحة. كانت له ميول علوية إذ ولّى العهد من بعده لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وضرب الدراهم باسمه وزوجه ابنته. وكاد هذا الأمر يحدث فتنة لولا موت علي الرضا سنة 203هـ.

وقد كثرت كتب الفلسفة والعلوم في عهده، ويروي ابن النديم في «الفهرست» أن سبب ازدهار الحياة الفكرية في عهد المأمون أنه رأى في منامه أرسطو وسأله أسئلة منها ما الحسَن؟ فقال له أرسطو : ما حسُن في العقل، ثم قال : ثم ماذا؟ قال : ما حسن في الشرع. وقال : ثم ماذا؟ قال : ما حسن عند الجمهور. قال : ثم ماذا؟. قال : لاثم.

وفي رواية أخرى أن أرسطو نصح المأمون بالتوحيد. لذلك

كان المأمون من المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، وهو الذي جعل الاعتزال مذهبا رسميا في الدولة، وأصدر أمره لكافة الولاة بفرض الاعتقاد الرسمي المتعلق بخلق القرآن ونفي الصفات الالهية عن الله، وأمر بمساءلة العلماء بالموضوع ومجادلتهم بل حتى سجنهم وتعذيبهم وقتلهم اذا لم يعتقدوا اعتقاده وانجر عن أمره اضطهاد أهل السنة وامتحانهم.

وكان بين المأمون وملك الروم مراسلات عن الكتب الموجودة في بلاده، وأرسل الوفود بحمل ما يختارونه منها ثم أمرهم بتعريبها. هكذا تمم ما بدأ به جده أبو جعفر المنصور في ترجمة كتب العلم والفلسفة. وقد ألّف المأمون كتبا هي اليوم مفقودة منها رسالة في أعلام النبوّة، ورسالة في مناقب الخلفاء بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، وجواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد.

وقد أحاط المأمون نفسه برجلين كان لهما شديد الأثر في إعلانه مذهب الاعتزال مذهبا رسميا للدولة، هما ثمامة بن أشرس النميري، كان زعيما من زعماء الاعتزال وخاصة أحمد بن أبي دؤاد المتوفى سنة 240هـ، وقد اتخذه المأمون صديقا وقربه إليه، وطلب من أخيه المعتصم بالله أن يعتمد عليه في حكمه فسماه قاضيا. وكان يرأس فيما بعد المناقشات العقائدية والمجادلات الكلامية التي كان المعتصم يمتحن بها رجال السنّة، وفي عهد المتوكّل على الله أصيب بالفالج، وصادر المتوكل ممتلكات أبنائه وسجنهم.

وقد اقتفى أخوه المعتصم بالله المتوفى سنة 227هـ خطو

أخيه، وسلك مسلكه في امتحان أهل السنّة بل بالغ في اضطهاد الفقهاء السنيين منهم الإمام أحمد بن حنبل فقد ضربه وسجنه.

يقول السيوطي في تاريخه عن المعتصم: «وقاسى الناس منه مشقة وقتل عليه خلقا من العلماء وضرب الإمام ابن حنبل سنة 220هـ». وكتب المعتصم للمعلمين يأمرهم أن يعلّموا الصبيان العقيدة الكلامية وكذلك سار الواثق بالله هارون بن المعتصم مسيرة المأمون. وقد بويع له بالخلافة سنة 227هـ.

وازدهرت الحركة العلمية في عهدي المأمون والمعتصم، إذ أسس المأمون بيت الحكمة للترجمة وأقام مرصدا للنجوم ببغداد وأسس مكتبة عظيمة وأنشأ مدرسة للطب بجنديسابور، هذه المدينة المشهورة بالطب والتي أسسها خسرو الأول. واشتهر من العلماء في عهده بنو شاكر محمد وأحمد والحسن، وحنين بن إسحاق، وقسطا بن لوقا، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة، والحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة. وترجم هؤلاء العديد من الكتب في الفلسفة والهندسة والرياضيات والطب والموسيقى. ونجد في الفهرست لابن النديم أسماء النقلة من الفارسيّة والهنديّة والنبطيّة إلى العربيّة.

وازدهرت كذلك الآداب، وفي هذا العهد عاش أبو تمام والبحتري، كما ازدهرت أيضا علوم الحديث والفقه والتاريخ، نذكر من العلماء الإمام البخاري المتوفى سنة 256هـ، صاحب الصحيح في الحديث، روي عنه أنه قال: خرّجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة وما وضعت فيه حديثا إلا

اغتسلت وصليت ركعتين. وعدد هذه الأحاديث 5727 حديثا وبغير المكرر 4000 حديث، ونذكر المؤرخ الكبير الواقدي صاحب كتب الفتوحات، ونذكر خاصة الإمام أحمد بن حنبل ومسنده.

وكان في هذا العهد انطلاق ازدهار الحركة العلمية بالترجمة والتأليف، ومن الكتب العلمية ما ترجم أكثر من ترجمة.

* * *

ترجع حركة الاعتزال إلى اسمين لامعين هما واصل بن عطاء المتوفى سنة 131هـ وعمرو بن عبيد المتوفى سنة 145هـ. وقد انعزلا عن حلقة الحسن البصري المتوفى سنة 110هـ. وأسسا لنفسيهما مذهبا عقائديا مخالفا للمذهب الشيعي ومذهب الخوارج ومذهب المرجئة ومذهب الجبرية.

ويرتكز مذهب المعتزلة أساسا على القول إن مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين أي ليس مؤمنا ولا كافرا بينما الخوارج يعتبرون مرتكب الكبيرة فاسقا وفاجرا وكافرا. ويعتقد المرجئة أنه مؤمن غير كافر ويرجئون أمره إلى يوم الحساب ويقولون أن لا ضرر للإيمان مع الكبيرة.

أما عند حسن البصري فمرتكب الكبيرة منافق، ويرى صاحب فصل «معتزلة» بدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) أن لحركة الاعتزال صلة بالدعوة العباسية لذلك صارت نظريتهم نظرية رسمية للدولة، ويعتبر أنه توجد صراعات سياسية تختفي وراء المجادلات العقائدية للدولة.

ويتميز المعتزلة بآراء خاصة بهم يعرفون بها منها أنهم أهل العدل والتوحيد، وتقوم نظريتهم على هذه المبادئ الثلاثة :

1) نفي الصفات الحسنى عن الله تعالى لذلك سمّوا بأهل التوحيد.

2) إن الله عادل ولا يجوز أن يضاف إليه الشر والظلم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمرهم ويحكم عليهم به ثم يجازيهم فالعبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر والله هو المجازي.

3) إنهم يقولون إن أحدا من الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفّين مخطئ وكذلك عثمان بن عفان وقاتليه وخاذليه، أي إن أحد الفريقين فاسق لا محالة لذلك لا تقبل شهادتهما.

وقد امتحن المعتزلة أهل السنة خاصة بقضيتين، الأولى هي نفي الصفات عن الله تعالى والثانية قضية خلق القرآن. ولعل دي بور على صواب حين قال :

«قد نظر المعتزلة في الأديان الثلاثة السماوية يقارنون بعضها ببعض، بل يقارنون هذه الأديان بالتعاليم الدينية عند الفرس والهنود وبالآراء الفلسفية أيضا، فتوصّلوا بذلك إلى شريعة فطرية عقلية توفق بين الآراء المختلفة»[1].

ويمكن أن نقول إن المعتزلة دافعوا عن الشريعة الإسلامية بطرق منطقية عقلية كلامية فلسفية، فالحركة الاعتزالية هي حركة تدافع عن الدعوة المحمديّة بتوخي طرق الفلاسفة لدحض آراء الخصوم، وتخوض في عديد المسائل الدينية ضد الدهريين والمجوس والزنادقة.

(1) ص 105 من كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية.

وقد تفرعت هذه الحركة بالبصرة وبغداد والقيروان، وظهر منها أكثر من عشرين فرقة، وبرز فيها أعلام عديدون نذكر منهم بشر بن المعتمر ببغداد وأبا عثمان الجاحظ بالبصرة وإبراهيم النظام وأبا الهذيل العلاف وقد تناولنا الحركة الاعتزالية بالقيروان في عهد الأغالبة بالدراسة في كتابنا تاريخ القيروان الثقافي والحضاري.

ومن جهة أخرى قد اتخذوا العقل سلاحهم الوحيد لإثبات مبادئهم وإقناع غيرهم باعتقاداتهم، وبنوا على العقل مجادلاتهم، «فالعقل هو محركهم والآلة التي تسيرهم وحلقة الاتصال بينهم وبين معتقداتهم ومبادئهم»[2] غايتهم الدفاع عن الإسلام ومبادئه ضد الثنوية والمجوس وسائر الفرق الاسلامية مثل الشيعة والمرجئة والجبرية والخوارج وأهل السنّة.

وللمعتزلة قدرة كبيرة، على الاحتجاج والجدال وهم أصحاب عقول قادرة على التحليل والاستنباط لإثبات آرائهم ودحض مخالفيهم، ولهم ثقافة دينية وفلسفية واسعة، اتخذوا المنطق أداة مرنة للاحتجاج والاستدلال.

وقد آمن المعتزلة بأن الله تعالى قد وهب الإنسان العقل كي يعمل به ويستغله في قضاياه وأموره اليومية ولم يمنحه إياه كي يتركه جانبا بلا فائدة، والمعتزلة أخيرا هم رواد الفكر الحر قد التحموا فكريا مع فلاسفة المذاهب المختلفة وحاولوا الإقناع بحرية الإرادة وحرية الاختيار ونفي الجبر[3].

* * *

(2) نبيل خليل أبو حاتم : الفرق الإسلامية فكرا وشعرا، دار الثقافة، بيروت 1990.

(3) نفسه.

وقد دخلت الحركة الاعتزالية طورها الرسمي عندما وجه المأمون رسائل إلى نوابه في بغداد ومصر والقيروان وغيرها يثبت فيها مذهبه الاعتزالي الرسمي في نفي الصفات عن الله تعالى والقول بخلق القرآن، ويدعو نوابه إلى امتحان العلماء والفقهاء من أهل السنّة في هاتين القضيتين.

وتنحصر القضية الأولى في مبدإ نفي الصفات الأزلية عن الله والاعتقاد بأن الله ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، ولم يكن في الازل اسم ولا صفة، وتستحيل رؤية الله بالإبصار ولا يرى نفسه ولا يراه غيره. يقول المعتزلة إن الله قديم والقدم أخص وصف لذاته، فهو عالم بذاته، قادر بذاته، ولو شاركته الصفات في القدم لشاركته في الألوهية. كما نفوا رؤية الله بالإبصار في الدنيا، ونفوا عنه التشبيه من كل وجه وجهة ومكانا وصورة وجسما وانتقالا.

أما أهل السنة فيقولون إن الله يكون مرئيا للمؤمنين في الآخرة، وتجوز رؤيته في كل حال، ولكل حي من طريق العقل، ورؤيته واجبة للمؤمنين خاصة في الآخرة.

ويقولون إن لله تسعة وتسعين إسما، ومن أحصاها دخل الجنّة، وكذلك من علم بها واعتقد معانيها. وتنقسم صفات الله الحسنى إلى ثلاثة أقسام:

1) قسم يفيد صفاته الأزلية القائمة بذاته كالحي والقادر والعالم والمريد والسامع.

2) وقسم مشتق من أفعاله كالخالق والرازق والعادل.

3) وقسم ثالث يدل على ذاته كالواحد والغني والأول والآخر والجليل.

ويرون أن الصفات المذكورة في القرآن حق وكذلك المتشابه كاليد والعرش، ويعتقد الإمام أحمد بن حنبل أن الاعتقاد في الله يجب أن يكون بلا كيف.

أما القضية الثانية وهي خلق القرآن فيعتبر المعتزلة أن كلام الله محدث. ومن أقوال أبي إسحاق إبراهيم النظام: «إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي عليه السلام ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الأخبار عن الغيوب. فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف»[4].

ومعنى هذا القول أن كلام الله محدث، وأنّ حروفه وأصواته حكايات عن الله، بينما يقول أهل السنة إن كلام الله صفة له أزلية وإنه غير مخلوق ولا محدث، وبدون خوض في المسائل الكلامية يرى أهل السنّة أن القرآن غير مخلوق وهو حروف وكلمات وعبارات وأفكار. والنطق غير مخلوق. لذلك اعتقد المعتزلة خاصة منهم الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق أن الاعتقاد بقدم القرآن شرك وكفر.

وقد انتقد المأمون في رسالته إلى نوابه ببغداد والقيروان ومدن أخرى من يقول بقدم القرآن وبعدم خلقه، ويدعوهم إلى امتحان أهل السنة خاصة أحمد بن حنبل وفقهاء آخرين. وطلب عزلهم من القضاء أو الخطط التي يشغلونها وعدم قبول شهادتهم إذا لم يقولوا بخلق القرآن، وأجاب أحمد بن حنبل في امتحانه بقوله: كلام الله

---

(4) ص 128 من كتاب الفرق بين الفرق.

ولا أزيد على هذا. وكان جواب المأمون من لم يجب أنه مخلوق يمنع من الفتوى والرواية، وأمر إن أصروا على رأيهم أن تضرب أعناقهم وتبعث له رؤوسهم. وأمر بأن يحمل له آخرون مقيدين. وهكذا حمل إليه أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وعبد الله القواريري وسجادة. وتوفى المأمون وهم بالرقة في الطريق إليه فأرجعوا إلى بغداد.

واستدعى الخليفة المعتصم أحمد بن حنبل في رمضان من سنة 219هـ وسئل فرفض القول بخلق القرآن فجلد شديد الجلد ثم سجن حوالي سنتين، ثم أطلق سراحه، ويروى أنه لما سجن أرسل إليه الإمام الشافعي هذين البيتين يحثه فيهما على الصبر وهما:

إن الخطوب ستنجلي يا أحمدُ
فإذا عجزتَ عن الخطوب فمن لها؟
فاصبر لها ولعلّها ولعلّها
ولعل من عقد الأمور يحلّها

فأجابه الإمام أحمد بهذه الأبيات :

إن الأمور إذا التوت وتعقّدت
نزل القضا من السّما فحلّها
صبّرتني ووعظتني وأنا لها
فستنجلى بل لا أقول لعلّها
ولعلّ من عقد الأمر يحلها
ويحلّها ويحلّها ويحلّها

وسئل آخرون فلم يجيبوا بشيء ولم ينكروا، قال واحد منهم: أقول كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا.

وقد أفل نجم الاعتزال وتم الرجوع رسميا إلى السنة من جديد حين أظهر المتوكّل على الله الميل إلى السنة عام 234هـ، وكتب برفع المحنة عن أهلها واستقدم المحدثين إلى سامراء وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بالحديث عن الصفات والرؤية.

واستفحلت شعبية أحمد بن حنبل بعد أن رفض بقوة نظرية خلق القرآن وهو مؤسس لأحد المذاهب الإسلامية.

كما أن أبا الحسن الأشعري قد انفصل عن الحركة الاعتزالية بعد أن كان منتسبا إليها، وكتب كتابه «مقالات الإسلامين واختلاف المصلين» ويعتبر أن العقل عاجز عن إدراك وجود الله وأن النظر العقلي المستقل عن الوحي ليس سبيلا إلى معرفة الله.

* * *

ولد أبو الحسن علي الأشعري البصري سنة 266هـ وقيل سنة 270هـ وتوفي ببغداد سنة 324هـ وقيل نيف وثلاثين وثلاثمائة هجرية. أخذ علم الكلام خاصة عن زوج أمه أبي علي محمد الجبائي، واقتدى برأيه عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة. ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة وصعد يوم الجمعة كرسيا بجامع البصرة ونادي بأعلى صوته : «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا أبو الحسن علي الأشعري، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالإبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع، معتقد الرد على المعتزلة، مبين لفضائحهم ومعائبهم».

هكذا أخذ أبو الحسن الأشعري يرد على المعتزلة، وألف خمسة وخمسين كتابا في مجادلتهم منها تفسير للقرآن في سبعين مجلدا. وبسط عقيدته في عدة صفحات.

المصادر :

- **ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد)** : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مكتبة الحياة، بيروت، الفصلان الثامن والتاسع.

- **البغدادي (إسماعيل)** : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، استطنبول 1951.

- **البغدادي (عبد القاهر)** : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1977.

- **دي بور (ت. ج)** : تاريخ الفلسفة الاسلامية، تعريب محمد الطاهر أبو ريدة، ط 5، بيروت 1981.

- **ابن الجوزي (عبد الرحمان)** : مناقب الإمام أحمد بن حنبل، القاهرة، 1349.

- **ابن حزم (أبو محمد علي)** : الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط 2، مصر 1347.

- **دائرة المعارف الإسلامية** : فصول : أحمد بن أبي دؤاد، المأمون، جهم بن صفوان، الأشعري، المعتزلة، محنة.

- **السيوطي (عبد الرحمان)** : تاريخ الخلفاء، مصر 1305 (عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل).

- **الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن أحمد)** : الملل والنحل على هامش كتاب ابن حزم السابق.

- **الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)** : تاريخ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ج 8 و9، دار المعارف، مصر 1969.

- **ابن النديم (محمد بن اسحاق)** : الفهرست، بيروت د. ت

(صور عن طبعة فلوغل). المقالة السابعة المحتوية على أخبار الفلاسفة والعلوم والكتب المصنّفة.



المأمون

إخوان الصّفاء والموسيقى

يعرف «اخوان الصفاء وخلان الوفاء» في رسائلهم، وهم من القرن الرابع الهجري، الموسيقى والموسيقار والغناء واللحن والنغمات والصوت بقولهم : «إن الموسيقى هي الغناء والموسيقار هو المغني، والموسيقات (كذا) هو آلة الغناء والغناء هو ألحان مؤلّفة، واللحن هو نغمات متواترة، والنغمات هي أصوات متزنة، والصوت هو قرع يحدُث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض» (ص 188 من المجلد الأول).

في هذا التعريف خلط بين الموسيقى والغناء، فالموسيقار يختلف عن المغني وكلاهما يمكن أن يكون الآخر. إذ هم يرادفون بين الموسقى والغناء، وهما عندهم شيء واحد ففي الرسالة الخامسة الخاصة بالموسيقى من القسم الرياضي يعرّفون الموسيقى بأنها ألحان مؤتلفة ونغمات متزنة وبأنها الغناء والعكس (ص 193) وأن الغناء مركب من الألحان واللحن مركب من النغمات وأصلها كلها حركات وسكون (ص 196 ـ 197).

ويميزون في الغناء العربي ثمانية أنواع هي :

الثقيل الأول وخفيفه، والثقيل الثاني وخفيفه، والرمل وخفيفه، والهزج وخفيفه (ص 199).

وهي نفس الأصوات التي يذكرها الأصبهاني في كتابه «الأغاني» ويصنف عليها الألحان والأشعار ومن هذه الثمانية الأجناس تتفرع سائر الألحان.

ويعدد «إخوان الصفاء» الآلات المستعملة وهي الطبول والدفوف والنايات والصنوج والمزامير والسرنايات والصفارات والسلباب والشواشل والعيدان والطنابير والجُنْك والرباب والمعازف والأراغن والأرمونيقى، لكنهم يعتبرون أن أتم آلة استخرجتها الحكماء وأحسن ما صنعوها هي العود (ص 202). ويفصلون كيفية صنعه ومكوناته وقياساته وأوتاره وكيفية العمل به، وكيفية تعديله وذلك لإظهار حكمة البارئ تعالى يقولون : «ونحتاج أن نذكر من كيفية صنعها وإصلاحها واستعمالها، وكمية نسب ما بين نغمات أوتارها وطولها وعرضها وغلظها ورقتها ونقراتها طرفا شِبْهَ المدخل والمقدمات، ليكون تنبيها لنفوس الطالبين للعلوم الفلسفية، والناظرين في الآداب الرياضية، ونبين لهم دقائق الحكمة وأسرار الصنائع التي هي كلها دلالة على الصانع الحكيم الذي هو الباري تبارك وجل ثناؤه وهو الذي خلق الصناع وألهم الصنائع الأول والحِكم والعلوم والمعارف» (ص 202 ـ 203).

وهكذا تندرج الغاية من ذكر إخوان الصفاء للموسيقى والغناء وآلاته في الغاية الأسمى وهي الغاية الفلسفية. وقد تناول إخوان الصفاء مختلف تأثيرات الموسيقى في النفوس وألوانها، ومنافعها واحتياج جميع الناس إليها : فهي تستعمل عند الفرح والسرور، في الأعراس والولائم والدعوات، وتارة عند الحزن وأخرى في

المناسبات الدينية، وتارة في مجالس الملوك ومنازل السوقة، ويستعملها كل الناس من جميع الفئات والطبقات والصنائع (ص 185).

وقد ذكر إخوان الصفاء أنواع الموسيقى وأصنافها، فمنها المسمى «بالمحزن» وهي التي ترقق القلوب وتبكي العيون، ومنها المسمى بالمشجع وهو يستعمل في الحروب.

ومنها أنواع لم يسموها بأسمائها ولكن ذكروا خصائصها منها ما يخفف الأسقام عن المريض ويشفي من الأمراض، ومنها ما يستعمل عند المصائب والأحزان فيعزي النفوس ويخفف الآلام، ويسلي عن الأشواق، ويسكن الأحزان، ومنها ما يخفف كد الأبدان وتعب النفوس، ويستعمل في الصناعات والأعمال المضنية والشائع هو ما يستعمل في الأفراح والسرور والمناسبات السعيدة. ومنها ما يستعمل للحيوانات «لينشّط الجمال في السير ويخفّف عليها ثقل الأحمال ويستعملها رعاة الغنم والبقر والخيل عند ورودها الماء من الصفير ترغيبا لها في شرب الماء ويستعملون لها أيضا ألحانا أخَر عند هيجانها للنزو والسِّفاد، وألحانا أخر عند حلب البانها لتدر. ويستعمل صياد الغزلان والدّراج [وهو طائر جميل المنظر ملوّن الريش] والقطا وغيرها من الطيور ألحانا في ظلم الليل يُوقعها بها حتى تؤخذ باليد. وتستعمل النساء ألحانا تسكّن البكاء وتجلب النوم» (ص 188).

هكذا يصور إخوان الصفاء ثراء الموسيقى العربية ومنافعها الطبية وجدواها النفسية، ولا تستعمل للملذات والأفراح

والمسرات فقط بل كذلك تستعمل لجلب الحيوانات أو لاقتضاء مصالح خاصة أو عامة.

أقوال لحكماء عن الغناء في رسائل إخوان الصفاء :

- الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعته حرّك النفوس نحو الفضائل ونفى عنها الرذائل.
- لا يفهم معاني الموسيقار ولطيف عباراته عن أسرار الغيوب إلا النفوس الشريفة الصافية من الشوائب الطبيعية، والبريئة من الشهوات البهيمية.
- إن السمع والبصر هما من أفضل الحواس الخمس وأشرفها التي وهب الباري للحيوان.
- محسوسات البصر أكثرها جسمانية، ومحسوسات السمع كلها روحانية.
- النفس بطريق السمع تنال خبر من هو غائب عنها بالمكان والزمان، وبطريق البصر لا تنال إلا ما كان حاضرا في الوقت.
- السمع أدق تمييزا من البصر (...) والبصر يخطئ في أكثر مدركاته فإنه ربما يرى الكبير صغيرا والصغير كبيرا، والقريب بعيدا والبعيد قريبا، والمتحرك ساكنا والساكن متحركا، والمستوي معوجا والمعوج مستويا.
- إن وزن نقرات وتر الموسيقار، وتناسب ما بينها ولذيذ نغماته تنبئ النفوس الجزئية بأن لحركات الأفلاك والكواكب نغمات متناسبة مؤتلفة لذيذة.

ـ قال أفلاطون : الموسيقى معشوق النفس وهو منها فلا ينبغي أن يمنع العاشق من المعشوق.

ـ قال بيتاغور (فيثا غورس) : إن فضل الغناء على الكلام كفضل الناطق على الأخرس وما أشبه ذلك.

ـ الموسيقى تستدرج أبناء الفلسفة إلى عالم العقل لأن ظاهرها لهو الحواس، وباطنها لهو الحق، يعني أن الموسيقى تحدث في النفس الفاضلة بالفعل ما كان عندها بالقوة وهي كالصقال للثوب.

ـ من الألحان والنغمات ما يسكّن سورة الغضب ويحلّ الأحقاد، ويوقع الصلح، وكسب الألفة والمحبّة.

ـ إن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات، ولها في النفوس تأثيرات (...)، من تلك النغمات والأصوات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة، وينشطها ويقوي عزماتها على الأفعال الصعبة المتعبة للأبدان التي تبذل فيها مهج النفوس وذخائر الأموال، وهي الألحان المشجعة التي تستعمل في الحروب.

ونلاحظ أن إخوان الصفاء وخلان الوفاء وأهل العدل وأبناء الحمد... هم جماعة عاشت في القرن الرابع الهجري بالبصرة، لا نعرف عنها إلا القليل، وهم أصحاب اثنتين وخمسين رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب، ومما يؤثر عن إخوان الصفاء قول أبي حيان التوحيدي : «كانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا الطريق إلى الفوز

برضوان الله وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سيبل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية قد حصل الكمال». (انظر فصلا عن رسالة في العشق لإخوان الصفاء في كتابنا «كتب الحب عند العرب» نشر رياض الريس، بيروت 2001).

رسالة الطير لأبي حامد الغزالي

من رسائل أبي حامد الغزالي رسالة الطير وهي رسالة قصيرة تصف جماعة من الطّيور تبحث عن حبيبها القاطن في إحدى الجزر النائيّة «جمعتهم داعية الشّوق وهمّة الطّلب فصمّموا العزم على النّهوض إليها، والاستظلال بظلّها والمثول بفنائها والاستسعاد بخدمتها فتناشدوا وقالوا :

قُومُوا إِلى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحيِّيها
نَعَمْ ونَسْأَلُهم عَنْ بَعْض أهليها

وإذا الأشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب، وزعمت بلسان الطلب بأي نواحي الأرض أبغي وصالكم».

هذه قصّة خيالية رمزية أبطالها طيور تتوق إلى البحث عن الحبيب المأمول، والحبيب هو الشفاء المطلوب، وهو الغاية

ولـو داواك كـلّ طبـيـب إنـسٍ
بغيـر كـلام ليـلى مـا شـفـاكـا

وتتميز لغة هذه الرسالة بلهجة الحنين الذي يصل بالمحبّين إلى حدّ الجنون، يحدوهم التحدّي والإصرار على المواصلة حتّى الظّفر بالحبيب الموعود، فرغم المصاعب والمخاطر والتحديات فلا

بد من الوصول إليه ومناجاته والتنعّم بوصاله وقربه. يقول الغزالي عن هذه الطيور التي ترمز للمحبّين من أمثال مجنون ليلى العامرية وعنترة بن شداد :

«ثمّ نادى لهم الحنين، ودبّ فيهم الجنون، فلم يتلعثموا في الطّلب، اهتزازا منهم إلى بلوغ الأرب. فقيل لهم : بين أيديكم المهامه الفيح، والجبال الشاهقة، والبحار المغرقة، وأماكن القرّ ومساكن الحرّ»، لكن رغم الوشاة والعذّال والمصاعب المختلفة، والمفاجآت غير السارة فقد «امتطى كلّ منهم مطية الهمّة قد ألجمها بلجام الشّوق، وقوّمها بقوام العشق وهو يقول :

انظر إلى نَاقَتِي في ساحة الوادِي
شديدة بالسُّرى من تحت ميّادِ
إذا اشْتكت من كَلاَل البيْن أوْعَدَها
رَوْحُ القدوم فَتحيا عند ميعادي

تقوم قصّة الطير على المعاني الرّمزية الصوفية خاصّة على معنى الشوق والحنين وشدّة العزم على لقاء الحبيب، كما تقوم على لغتها الشعرية والأشعار التي استشهدت بها والأمثال التي احتوتها مثل : «كلام الطيور لا يفهمه إلا من هو من الطيور، والهموم بقدر الهمم، وكيف يقال لمن سمع النداء لِم جئت؟».

ومن كتاب «إحياء علوم الدين» هذه الجمل المقاربة لما جاء في رسالة الطير من معان :

ـ البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظّاهر، والقلب أشدّ إدراكا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصّور

الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشّريفة الإلهية التي تجلّ عن أن تدركها الحواسّ أتمّ وأبلغ.

ـ الشوق هو التمني للقاء المعشوق.

ـ إن إدراك الجمال فيه عين اللّذة، واللّذة محبوبة لذاتها لا لغيرها، فقد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك الجمال لذيذ ويجوز أن يكون محبوبا للذاته (الإحياء ج 4، ص 256).

وأبو حامد الغزالي هو زين الدين حُجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطّوسي النَّيْسابوري الشافعي الأشعري مذهبا، ولد بطوس سنة 450هـ، وابتدأ فيها التّعلّم فدرس خاصة الفقه ثم قدم نيسابور، وأكمل فيها تعلّمه ملازما دروس إمام الحرمين الجويني (ت 478) ثمّ جلس للإقراء وبدأ يصنّف الكتب.

ثمّ خرج من نيسابور واتّصل بالوزير نظام الملك ببلدة المعسكر وحضر مجالسه العلميّة حيث كان يناظر الفقهاء والعلماء، وظهرَ اسمه وطار صيته.

وقام بالتدريس في المدرسة النظاميّة ببغداد. ثمّ تخلّى عنه طلبا للتنسّك، وسار نحو الشّام وأقام بدمشق وزار القدس وحجّ قبل أن يرجع إلى طوس، وكان يدرّس التّفسير والحديث والتّصوف ويؤلف عديد التّصانيف إلى أن توفّي في 10 جمادى الأولى سنة 505هـ.

وقد حدّثنا الغزالي عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال» فقال راويا قصة تكوّنه العلمي: «لم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ إلى أن أناف السّنّ على الخمسين أقتحم لجّة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور،

وأتوغّل في كلّ مُظلمة وأهجم على كلّ مُشكلة، وأقتحم كلّ ورطة، وأتفحّص عن عقيدة كلّ فرقة، وأتكشّف أسرار مذاهب كلّ طائفة لأميّز بين كلّ محقّ ومبطل، ومستنّ ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلاّ وأحبّ أن أطّلع على باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته، ولا متكلّما إلاّ واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلاّ وأحرص على العثور على صوفيته، ولا متعبّدا إلاّ وأبين ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطّلا إلا وأتجسّس وراءه للتّنبه لأسباب جراءته في تعطيله وزندقته».

وقال أيضا :

«قد كان التعطّش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أوّل أمري وريعان عمري غريزة من اللّه وفطرة وضعها اللّه في جبِلّتي لا باختياري وحيلتي حتّى انحلّت عنّي رابطة التقليد وانكسرت على العقائد المروية على قرب عهد من الصّبا».

وقال:

«قلت في نفسي أولا إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ولا بدّ من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أنّ العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ولا يتّسع العقل لتقدير ذلك».

لقد بدأ الغزالي منذ شهر رجب 486هـ التفكير في الانعزال والبعد عن الناس مدة ستّة أشهر، وأخيرا قرّر الإعراض عن الجاه

والمال والأهل والأولاد، وأظهر غرض الخروج إلى مكّة وهو يزمع الذهاب إلى الشّام. ومرّ بتجربة الشّكّ في نفسه وفي العلوم وما حصّل من معارف قال :

«كنت أجاهد نفسي أن أدرّس يوما واحدا تطييبا للقلوب المختلفة إليّ فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتّة حتى أورثت هذه العقلة في اللّسان حزنا في القلب بطلت معه قوّة الهضم ومريء الطعام والشّراب، وكان لا تنساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة، وتعدّى ذلك إلى ضعف القوى حتّى قطع الأطباء طمعهم في العلاج، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج».

وبعد أن مرّ أبو حامد الغزالي بتجربته الفكريّة ومعاناته الروحيّة اعتزل التدريس ببغداد حيث كان أستاذا للفقه والتّوحيد في المدرسة النظاميّة واختار حياة التصوّف. و«تشبث دائما بنقطتين جوهريتين، الأولى تقديسه للشرع، والثانية وجهة نظره في الألوهيّة، فإنّه أوصد الباب في وجه مذهب وحدة الوجود بقوله : (...) إنّ العبد عبد والرّب ربّ، ولن يصير أحدهما الآخر البتّة»[1].

1) التّصوّف : للدكتور البير نصرى نادر، ص 49. وقد أعددنا دراسة وافية عن أبي حامد الغزالي من خلال تراجمه وتآليفه، وهي في طريقها إلى النشر إن شاء الله.

سيبويه رائد النحاة

هو عمرو بن عثمان بن قنبر. من أصل فارسي ويختلف ابن الأنباري في ذكر اسم الجد فيؤنثه «قنبرة». أما كنيته المشهورة فهي أبو بشر ويزيد المترجمون لحياته كنيات أخرى : أبا الحسين وأبا عثمان (أبو الطيب اللغوي) وأبا الحسن.

واهتمّ المترجمون له بتفسير لقبه «سيبويه» واختلفت الشروح فمنهم من قال إن « سيب » بالفارسيّة تعني : تفاحة. وويه، رائحة، فيعني اسمه إذن : رائحة التفاحة.

ومنهم من قال إن سي تعني ثلاثين وبويه : رائحة، فيعني اللقب : ثلاثين رائحة.

ويروى أن سبب تسميته بذلك أن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان وكانت والدته ترقصه بذلك.

وذكر ياقوت أن كل من يلقاه كان يشم منه رائحة الطيب، ويقول الزبيدي : إنه كان حسن الوجه، شابا جميلا نظيفا.

وينتمي سيبويه بالولاء إلى بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أحد. وذكر ابن الأنباري أنه مولى آل الربيع بن زياد الحارثي.

أما ولادته فيذكر الزبيدي أنه ولد بالبيضاء وهي قرية من قرى شيراز بفارس، ولم يذكروا تاريخ ولادته.

ويفيدنا رواة أخباره عن أهله فيذكرون والدته التي كانت ترقصه وهو صغير بأغنية «رائحة التفاح»، ويذكرون كذلك أخاه وافتراقهما عندما صوّب سيبويه للبصرة، ثم تلاقيهما عند اعتلال صاحب الكتاب. ويروون أنه لما مرض وضع رأسه في حجره فدمعت عينا أخيه فأفاق ورآه يبكي فأنشد :

وكنا جميعا فرّق الدهر بيننا
إلى الأمد الأقصى فمن يأمن الدهر !

ويروي ابن الانباري هذا البيت باختلاف :

أخيين، كنا فرّق الدهر بيننا
إلى الغاية القصوى، فمن يأمن الدهرا

أساتذته وتعلمه :

قدم سيبويه إلى البصرة لطلب الحديث والآثار والفقه فكان من أول أساتذته حماد بن سلمة الذي دفعه بطريقة غير مباشرة إلى الاهتمام بالنحو، إذ لامه على إيتاء لحن في رواية الحديث الآتي : «ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء. فلاحظ له أستاذه لحنه وخطأه. فأجاب: «لا جرم، لأطلبنّ علما لا تلحنني فيه أبدا!».

وتروي بعض المصادر لحنا له في كلمة أخرى عن أعرابي رعف في الصلاة بضم عين الفعل والصواب فتحها، واشتكى إلى

الخليل بن أحمد الفراهيدي فأجابه : صدق حماد.. ورعف بضم عين الفعل لغة ضعيفة.

وكان جواب الخليل من الأسباب التي جعلت سيبويه يلزمه ويرابط في حلقته حتى أصبح من أنجب تلامذته بل أصبح أعلم الناس بالنحو بعده. وكانت علاقته بالخليل علاقة طيّبة. فكان أستاذه يرحبّ به كلما رآه مقبلا عليه يقول له : «مرحبا بزائر لا يمل» ولم يسمع الخليل يقولها لغيره.

وتذكر المصادر أساتذة آخرين مثل يونس بن حبيب وعيسى بن عمر الثقفي في النحو، وأبي الخطاب الأخفش الأكبر في اللغة. وقد أخذ سيبويه عنهم الكثير وترددت أسماؤهم في الكتاب.

الكتاب :

عرف أثر سيبويه بعنوان «الكتاب» يقال : قرأ فلان الكتاب، ونصف الكتاب، فيعلم أنه كتاب سيبويه، ومما يذكر عن قيمة هذا الكتاب سؤال المبرد لطالب النحو : «هل ركبت البحر؟» وذلك تعظيما وإجلالا واستصعابا : وقوله المازني الشهيرة : «من أراد أن يعمل كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح». ومما يدل على مكانة الكتاب إذ ذاك اهتمام نحويين من نحاة الكوفة به وهما الكسائي والفراء.

فالكسائي طلب قراءة الكتاب على الأخفش بعد موت سيبويه، ووجّه إليه خمسين دينارا وفي رواية أخرى سبعين دينارا (القفطي)، وأما الفراء فقد أعاد كتابته بخط يده، ووجه الكتاب تحت وسادته عند موته.

ولابد من ذكر تلك النسخة التي أهداها الجاحظ للوزير محمد بن عبد الملك الزيات وهي بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب الجاحظ فرحّب بها الوزير قائلا : «واللّه ما أهديت إلي شيئا أحبّ إلي منه، وهذه أجل نسخة توجد وأغربها».

وقد تسنى لسيبويه أن يتثقف ثقافة واسعة وأجمع كل المترجمين له على الإشادة بعلمه وقالوا إنه أعلم الناس بالنحو، وإنّه تعلّق بكل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم، حتى صار موضوع أسطورة تقول بأنه كان من الجن!..

ونفس عليه كثير من خصومه لا سيما من نحاة الكوفة، فادّعوا عليه انتحال الكتاب.

قال صاحب الفهرست ناقلا من خط ثعلب إنه اجتمع على صنعة كتاب سيبويه إثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل. ونجد رواية ثانية في قضية الشك في نسبة الكتاب إلى سيبويه وهي أنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمّى بالجامع وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره (القفطي).

ويروي بعضهم أن لعيسى هذا نيفا وسبعين مصنفا في النحو أتت عليها آفة ولم يبق منها سوى كتابين الكامل وهو بفارس والجامع وهو الذي نسج سيبويه عليه كتابه. وأنشد الخليل إشادة بهذين الكتابين البيتين التاليين المنسوبين إليه :

ذهب النحو جميعا كله
غيرما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال، وهذا جامع
فهما للناس شمس وقمر

إلا أننا نشك في صحة هذه الروايات وذلك لأن رواتها ومنهم ثعلب، من خصوم مدرسة البصرة وغايتهم القدح في الكتاب وتشويه سمعة مؤلفه، ونحن رغم هذا نجد شخصية سيبويه واضحة في الكتاب، ونشعر بأنه قد هضم دروس أساتذته واستشهد بأقوال كل من أخذ عنهم.

يقول الزمخشري ـ وهو من مفسّري كتابه ـ معجبا ومقيّما الكتاب (انظر بغية الوعاة للسيوطي) :

ألا صلّى الإله صلاة صدق
على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه
بنو قلم ولا أبناء منبر

تلامذته :

ولئن انكب جميع النحاة على الكتاب بالدراسة، والتأمل والحفظ فإن المصادر تذكر خاصة ثلاثة نحويين قرأوا على سيبويه كتابه وهم أبو الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة وقطرب محمد بن المستنير المشتهر في علم اللغة، والناشئ النحوي وهو شخصية غامضة لا نعلم عنها سوى القليل.

مناظراته :

ولع سيبويه بالمناظرة والمبارزة الكلامية وخاصّة إذا ما كانت على ملإ من الناس، وجمع مشهود من الحاضرين، رغم حبسة لسانه

(الزبيدي). فقد ناظر تلميذه الأخفش، وناظر الأصمعي، إلا أن أشهر مناظرة له هي المناظرة الشهيرة بالزنبورية في بغداد مع الكسائي في مجلس الرشيد في دار الوزير البرمكي أو في المسجد الجامع أو في قصر الخليفة العباسي ـ حسب اختلاف الروايات ـ وعمر سيبويه لا يتجاوز إذ ذاك إثنتين وثلاثين سنة.

تروي بعض المصادر قصة مناظرته هذه بكل تفصيل وإطناب وتدقيق (انظر الزبيدي والبغدادي) : جاء سيبويه بغداد لمناظرة الكسائي معلم أولاد الرشيد، وقصد يحيى بن خالد بن برمك، لكن الوزير البرمكي نصحه أن لا ينافس الكسائي منصبه وحذّره وبيّن له مكانة إمام مدرسة الكوفة النحوية في القصر والمدينة، وقال له : «لا تفعل» لكن سيبويه أصر على المبارزة والمناظرة.

أحسّ الكسائي بالخطر وراح يشتكي لابني الوزير البرمكي قال لهما : «أنا وليكما وصاحبكما، وهذا الرجل إنما قدم ليذهب محلّي» فقالا له : «احتل لنفسك فإنا سنجمع بينكما».

حضر سيبويه وحده المجلس، وحضر أصحاب الكسائي قبله منهم الفراء والأحمر، والأعراب الذين سيحكّمهم ينتظرون بالباب. سأله الأحمر عن مائة مسألة فما أجاب بجواب إلا قال : أخطأت يا بصري!

ثم جاء الكسائي، وكانت المسألة :

ـ كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو هو إياها.

فقال :

ـ فإذا هو هي.

فخطأه وخطأته الأعراب. وانصرم المجلس على أنه قد فشل وانهزم. وكانت نكبة سيبويه التي أدّت به إلى الممات إذ أثرت في نفسه عميق الأثر. فغادر بغداد سائلا عمّن يبذل من الملوك. فأشير عليه بخراسان وواليها اذ ذاك طلحة بن طاهر لكنه لم يصل إليه وتوفي وهو في طريقه إليه!.

وفاته :

اختلف في سنة وفاته ولنا في ذلك خمسة تواريخ : 161 ـ 177 ـ 180 ـ 188 ـ 194. علّق المرزباني على السنة الأولى «161» فقال : هذا غلط قبيح. لأن سيبويه بقي بعد هذا مدّة طويلة.

وتتفق أكثر الروايات على هاتين السنتين : 177 و180. ويمكن أن تكون سنة وفاته حوالي هاتين السنتين.

وقد توفي وعمره إثنتان وثلاثون سنة.

أما مكان وفاته ففيها أيضا اختلاف. إلا أن أغلب الروايات تتفق على أنه مات بشيراز ودفن بها. وهو بطريقه إلى خراسان. وقد وقفنا على قبره كما سنبين.

وتذكر كتب التراجم ظروف موته وسبب وفاته فيقال إنه ذرب في معدته، ويقال إنه مات غمّا وكمدا بسبب هزيمته في مقابلته مع الكسائي إذ توفي إثر فشله في طلب تفوّقه على إمام مدرسة الكوفة النحوية. وقد مات بحضور أخيه متمثلا بقول الشاعر (انظر ابن الانباري) :

نؤمّل دنيا لتبقى لنا
فمات المؤمِّل قبل الأمل
حثيثا يروّى أصول النخيل
فعاش الفسيل ومات الرّجل

ويروى الزبيدي وياقوت أنه قرئ على قبره هذه الأبيات :

ذهب الأحبّة بعد طول تزاور
ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة
لم يؤنسوك، وكربة لم يرفعوا
وقضى القضاء، وصرت صاحب حفرة
عنك الأحبّة أعرضوا وتصدّعوا

وقوف على قبر سيبويه :

قلت للدليل في زيارتي العلمية لإيران : إن شيراز هي بلد سيبويه وهو مؤلف أول كتاب في النحو العربي، بل هو مقننه وهو صاحب فضل كبير على النحو العربي فأعلمني أن قبره موجود.

ففرحت وقلت : خذني إليه! وأخذ يحدثني عنه، قال لي : إنه كان تربّى لدى الخليل بن أحمد، وكان سيبويه جميلا جدا، وكان الخليل يداعبه مربتا على خده قائلا له كلمة : سيبويه أي خد التفاح فسمي بذلك. وأخذني عبر الأنهج والأزقة في المدينة العتيقة حتى وصلت إلى قبره وحمدت الله أن وقفت عليه.

وكان المبرد يسأل طالب النحو قائلا : هل ركبت البحر وذلك تعظيما لتأليفه وإجلالا واستصعابا؟

لقد أقامت كلية الآداب بشيراز معلما فخما لقبر سيبويه زين بالرخام والزليج الفاخر ولوحات فنية ملوّنة بالمنمنمات الفارسية. وكان يوجد في مقبرته حجر أسود، أراني الدليل مكانه، كان الناس يعتقدون فيه الشّفاء ويشربون ما يحصل فيه من مياه المطر، لذلك سمي الحي الذي دفن فيه سيبويه بحي الحجر الأسود وكأن سيبويه أصبح وليا من أولياء الله.

وشيراز بلدة سيبويه هي عاصمة إقليم فارس، وهي بلدة العلماء والأدباء والشّعراء ورجال التصوّف، بل هي بلدة أشهر شعراء العشق في العالم، منهم الشاعران حافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي، ومن رجال شيراز محمد بن خفيف العالم المتصوّف، صاحب الحلاّج. وكانت شيراز موطن الحضارة الفارسيّة ومركزا مزدهرا من مراكز الأدب والفن والعلم والأدب في العالم الإسلامي. وهي من المدن التي أسّسها العرب الفاتحون، (انظر عنها كتابنا حافظ الشيرازي شاعر العشق).

المصادر (حسب أقدميتها) :

- **مراتب النحويين**، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللّغوي الحلبي (ت 351هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، د. ت.

- **أخبار النحويين البصريين**، لأبي سعيد الحسن السيرافي (ت 368هـ) نشر المستشرق كرنكو، الجزائر 1936 (ت 377هـ).

- **الفهرست** : **لابن النديم**، نشر فلوقل، ليبزيغ 1871 - 1872. جزآن.

- **طبقات النحويين واللّغويين**، لأبي بكر محمد الزبيدي، مصر 1954 (عاش في القرن الرابع الهجري).

- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، للخطيب البغدادي (ت 463هـ)، 12 جزءا، بيروت. د. ت.

- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، للأنباري (ت 577هـ)، القاهرة 1924.

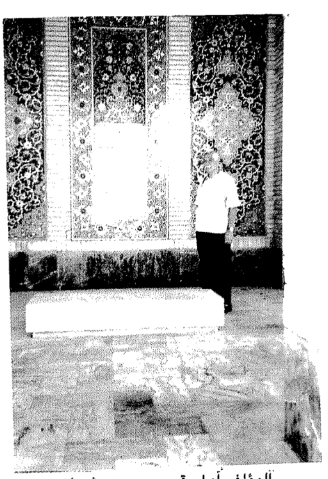
- **إنباه الرواة على أنباء النحاة**، لجمال الدين القفطي، 3 أجزاء، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1950.

- **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، لياقوت.

- **وفيات الأعيان**، لابن خلكان (ت 681هـ).

- **بغية الوعاة**، للسيوطي (ت 911).

- **كشف الظنون**، لحاجي خليفه (ت 1067هـ).



المؤلف أمام قبر سيبويه بشيراز

الأحوص شاعر الأغاني والغزل

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم، اشتهر بالأحوص لِحَوص كان في عينيه، ويلقّب بالأنصاري، وكان مدح خلفاء بني أمية، وغنّى بمدائحه في بلاطاتهم المغنون والمغنيات.

هو شاعر الغزل الأوّل بالمدينة في القرن الأول الهجري. ولد حوالي سنة أربعين للهجرة بقباء وفيها نشأ[1]، «كان شابا متأنّقا عطرا، فيه من المجون شيء»[2]، وقد سمح الجو الأدبي والغنائي بالمدينة للأحوص أن يصقل موهبته الشعرية التي أهّلته «لأن يكون نجما لامعا في دور الغناء خاصة في دار جميلة وكان الأحوص شديد الافتتان بها، كثير التردّد عليها، لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست وكانت هي له مكرّمة»[3].

قال الأصبهاني عن شعره : «لشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ»[4].

---

(1) شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق عادل سليمان جمال الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة، 1970، ص 22.

(2) نفسه : ص 23.

(3) نفسه : ص 25.

(4) الأغاني : ج 4، ص 43.

وقال عنه أيضا في موطن آخر : «أما تفضيله وتقدّمه في الشعر فمتعالَم مشهور، وشعره ينبئ عن نفسه ويدلّ على فضله فيه وتقدّمه وحسن رونقه وتهذّبه وصفاته»[5].

الأحوص شاعر الحبّ بدون منازع، إنّه خبير به، يقنن مذاهبه وطرقه في شعره، ويصف أحوال المحبّ وأطواره فيصوّر الحبّ فيحسن التصوير إذ أنّ تصويره له صادر عن تجربة ثرية باللقاءات مع الحبيبات. لقد عانى الأحوص من الحب وسعد به أوقاتا جميلة منذ الصبى، وتعدّدت معشوقاته فكثرت أسماؤهن في شعره، فهذه سعدى وهذه عقيلة، وتلك عبلة وهاتيك أم جعفر وغيرهنّ...

ويتمثل مذهب الأحوص في الحياة في التّمتّع والتلذّذ بثمار الحب من كل لقاء وتلاق يقول :

فما العيشُ إلا ما تَلذُّ وتشتهي
وإن لامَ فيه ذُو الشّنانِ وفنَّدَا

وتتلخّص إنسانية الإنسان عند الأحوص في العشق والعشق وحده، وبغيره يكون الانسان حجرا أو جلمودا من الصخر :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تدر ما الهوى
فكن حجراً من يابس الصخر جلمداَ

والأحوص شاعر الشباب، وشاعر الذكريات، خاصة ذكريات عشق قديم لم يضمحل، بقي كالجذوة تحت الرّماد، لا تنطفئ أبدا، تنتظر أدنى إثارة ليشتعل أوارها ويلتهب فيحترق القلب

(5) ج 4، ص 53.

بالهوى من جديد، وتذرف الدموع، وتختلج النفس، وتتصاعد الآهات عن الأمس البعيد، عن الهوى والشباب والأمل المفقود، ذكرى وراء ذكرى، والحياة ذكريات تلهب الفؤاد، ذكريات حبّ حي، دوما منتعش، وكيف يموت هوى القلوب وتندثر آثاره؟ وكيف تنعدم مودّة انغرست ذات يوم في قلب؟.. إن الشاعر، الأحوص، وفيٌّ لحبّه الأوّل :

وإنّي لأهواها وأهوى لقاءها
كما يشتهي الصادي الشّراب المبرَّدَا
... علاقةُ حبٍّ لجَّ في زمن الصّبا
فأبلَى وما يزدادُ إلاَّ تجدُّدَا

ولا ينفك الأحوص عن تذكرٌ الأيام الماضية، أيام الشباب، ويأسف على انقضائها، أيامٍ قضّاها مع الحبيب، لكنَّ هذه الأيام لن تعود من جديد... والزمن قاس لا يرحم :

تذكرّت أيامًا مضيْنَ منَ الصِّبَا
وهيهاتَ هيهَاتًا إليك رجُوعُهَا

ولنا كثير من المقطوعات عن الشباب في ديوان الأحوص، لقد وَخَط الشيب رأسه فبات يبكى الزمن الماضي بحزن وعويل، يبكيه وقد رزأه فيه الدّهر، يقول:

نزل المشيبُ فما له تحويل
ومضى الشبابُ فما إليه سبيلُ
ولقد أراني والشبابُ يقُودُني
ورداؤُه حَسَنٌ عليَّ جميلُ

وعليَّ من ورق الشّبابِ وظلِّه
غصنٌ تفرَّع في الغصون ظليلُ
بَشرٌ يكونُ من الحريرِ ولِمَّةٌ
مثلُ الجناح وعارضٌ مصقُولُ
فاليوم ودَّعنِي الشّبابُ كأنّنِي
سيفٌ تقادَم عهدُهُ مفلُول
تُرضيكَ هيبَتُهُ إذا استَقْبَلْتَهُ
وتقولُ حينَ تراه : فيه نُحُولُ

ويشعر الأحوص بالمرارة حين يجد نفسه قد فقد شبابه فيمثّلُ الإنسان بالمسافر الذي يمرُّ بمراحل عديدة، مرحلة بعد مرحلة، ولكن لا يستطيع أن يرجع إلى مرحلة بعد تجاوزها، ويمثل الشباب بضيف عزيز مبجّل لم يقم طويلا، وودّع تاركًا آلام الفراق، وضنى الوداع، وأسفَ الساعات التي صرفت في اللذة واللهو ومتاع الحياة :

فبان منّي شبابي بعد لذّته
كأنّما كان ضيفًا نازلا رَحَلاَ

وفي القصيدة اللامية المشهورة التي مدح بها الخليفة عمر بن عبد العزيز والتي تبتدئ هكذا :

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزّلُ
حذَر العدى، وبه الفؤاد موكَّلُ
أصبحتُ أمنحك الصُّدودَ وإنّني
قسمًا إليك، مع الصّدود لأميلُ

ولقد نزلتَ من الفؤاد بمنْزلٍ

مَا كانَ غيرُكَ والأمانةِ ينْزِلُ

في هذه القصيدة الطويلة ذات الخمسة والأربعين بيتا يبكى الأحوص شبابه، ويرثيه ويعدّد خصاله، ويصف حاضره وقد شمل البياض رأسه، فيصوّر حاله حزينا معولا، إنها نبرات حزينة مؤثرة، نبراتٌ من الشعر الوجداني الصّادق :

إنَّ الشّباب وعيشَنا اللّذّ الذي

كُنَّا به زمنًا نُسَرُّ ونجذَلُ

ذهبتْ بشاشتُهُ وأصبح ذكرُهُ

حَزَنًا يُعَلُّ به الفؤادُ ويُنْهلُ

إلاَّ تَذَكُّرَ ما مضى وصبابةً

منيتْ بقلْبٍ متيَّمٍ لا يذْهَلُ

أودى الشبابُ وأَخلقتْ لذَّاتُه

وأنا الحزينُ على الشباب المُعولُ

يبْكِي لما قلبَ الزّمانُ جديدَهُ

خَلَقًا، وليسَ على الزّمانِ مُعَوَّلُ

ويصور الأحوص ليالي العشق الخالدة حيثُ يكون اللّيل فيها حبيبًا للأحبّاء، يسترهم ولا يكشف عن حالهم، ولا ينمٌّ عنهم، يغطيهم بردائه فيحلو اللقاء، وتقر العيون، ويهدأ الوجدان :

من عاشقَيْنِ تراسلا وتواعدا

بلقًا، إذا نجمُ الثّريًا حلَّقا

بعَـشَـا أمامهما مخافة رقبةٍ

رَصَدًا، فمَزَّقَ عنهُما ما مزّقا

باتَـا بـأنْـعَـمِ لـيـلـةٍ وألـذِّها
حتَّى إذا وضحَ الصَّباحُ تفرَّقَا

ويذكر الأحوص في قصيدة أخرى من نفس القافية ليلة أرقٍ قضّاها مسهّدا يقول :

سـرَى ذا الـهـمُّ بـل طـرقَـا
فـبـتُّ مُـسَـهّـداً قـلـقَـا
كـذاكَ الـحـبُّ مـمَّـا يُـحْـ
ـدِثُ التّسْـهـيـدَ والأرقَـا

من مغامرات الأحوص :

في شعر الأحوص الغزلي قصصٌ وغراميات ونسوة متعدّدات. والمرأة المثالية عنده هي المرأة الرقيقة، بيضاء اللّون، بياضها يميل الى الحمرة، خميصةُ البطن، دقيقة الخصر، غير مترهّلة الجسم، مجدولةُ الساقين، ذات رائحة طيّبة. هذه المرأة هي المثال في المجتمع العربي بالمدينة، خلال القرن الأول للهجرة، يقول الأحوص :

وعهدي بها صفراء رَوْداً كأنّما
نضا عَرَقٌ منها على اللّونِ عسجدَا
مهفهفةُ الأعلى وأسفلُ خَلْقِها
جرى لحمُهُ من دون أنْ يتخدَّدَا
من المدمَجات اللّحمِ جدلاً كأنّها
عنانُ صناعٍ مدمجُ الفتْلِ مُحْصَدَا

وإنّي لأهواها وأهوى لقاءَهَا
كما يشتهي الصَّادِي الشَّراب المبرَّدَا

ومن المغامرات التي يرويها الأحوص، مغامرة ليلة صبا فيها الى الحبّ، اجتمع بخمس نساء نواعم أرسلن إليه كي يأتيهن، ويقصر معهن ليلتهن، فيصف الأحوص هؤلاء النسوة، ويصف نفسه سيّداً ذا أنفة، ظريفاً، صاحب فكاهات، غضّ الشباب، سخيّ النّفس. ووصف الأحوص ما جرى في هذه الليلة من المرح واللّهو والعبث، ومن هؤلاء النّسوة شابة ممشوقة القوام، ضامرة البطن. وتتميز هذه القصيدة بلهجة فيها افتخار ومباهاة، تدل على أن عمر بن أبي ربيعة لم يكن وحده من شعراء المدينة في هذا الاتجاه :

خمسٌ دسسنَ إليَّ في لَطَفٍ
حُورُ العيونِ، نواعِمٌ زُهرُ
فطرقتُهنَّ مع الجرِيِّ وَقدْ
نام الرّقيبُ وحلَّقَ النَّسْرُ

والأحوص يحبّ مقارنة نفسه بالشّعراء العشاق قبله، ويعلم النّاس أنه ليس الأول الذي أحبّ، فقبله من عشق ومات بالعشق :

إذا جئت قالوا : قد أتى. وتهامسوا
كأنْ لم يجِدْ فيما مضى أحد وجدي
فعروةُ سنَّ الحبَّ قبْلي إذ شقَى
بعفراء، والنّهديُّ ماتَ على هنْدِ[6]

(6) انظر كتابنا : الشعراء العشاق، نشر مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1994.

ولا نجد شاعرا في القديم تغنّي بشعره مثل الأحوص، فقد فصّل الأصبهاني القول في كتابه الأغاني في الأصوات المغناة بشعره. ومن المغنين به ابن سريج ومعبد وإبراهيم الموصلي وعَريب وسلاّمة وحبّابة وابن جامع وابن محرز[7].

ومن عشيقات الأحوص الأنصاري الذّلفاء، يقول فيها وهي من الجواري المغنيات :

إنما الذّلفاء همّي
فليدعنِي من يلُومُ
أحسنُ النّاسِ جميعًا
حينَ تمشِي وتقُومُ
حبَّ الذّلفاء عندي
منطقٌ منها رخيمُ
أصِلُ الحبْلَ لترْضَى
وهيَ للحبْلِ صرُومُ
حُبُّها في القلْبِ داءٌ
مستكنٌّ لا يريمُ

ومن عشيقاته أيضا سُعدى، وقد فاق حبّه لها حبَّ عروة بن حزام لعفراء، وحب النّهديّ لهند :

لا شكَّ أنَّ الذي بي سوف يقتلني
إن كانَ أهلكَ حبٌّ قبله أحدَا

---

(7) انظر كتابنا : الجواري المغنيات، نشر اسود على أبيض، تونس 1997.

... لو قاس عروةُ والنّهديُّ وجدَهما
لكان وجدي بسُعدى فوقَ ما وجدا

عزّة تفضّل شعر الأحوص على شعر صاحبها كُثيّر :

قالت عزّة لكثيّر في خبر ورد بالأغاني بأنها تفضّل شعر الأحوص على شعر صاحبها. دخل كثيّر على عزّة ذات يوم فقالت له : ما ينبغي لنا أن نأذنَ لك في الجلوس.

قال : ولِمَ؟

قالت : لانّي رأيتُ الأحوص ألْيَنَ جانبًا في شعره منكَ في شعركَ، وأضْرعَ خدًّا للنّساء، وإنّه لأشعر منك حين يقولُ :

يا أيّها اللائميّ فيها لأصْرِمَها
أكثرتَ، لو كان يُغني عنكَ إكثارُ
ارْجعْ فلسْتَ مطاعًا إن وشيتَ بهَا
لا القلبُ سالٍ ولا في حبّها عارُ

وإنّي استلْطفتُ قوله :

وما كنتُ زوّارًا ولكنَّ ذا الهوى
إذا لم يُزَر لا بدَّ أن سيزورُ

وأعجبني قوله :

كمْ من دنيٍّ لها قدْ صِرتُ أتبعه
ولو صحَا القلْبُ عنها كان لِي تَبَعَا
وزادني كلفًا بالحبِّ أنْ منعتْ
أحبُّ شيءٍ إلى الانسانِ ما مُنِعَا

وقوله أيضًا :

وما العيش الا ما تلَذُّ وتشْتهِي
وإن لامَ فيه ذو الشّنانِ وفنّدَا

فقال كثيّر : قد والله أجادَ !...

محن الأحوص :

مرّ الأحوص بمحن عديدة : جُلد ونفي وعذّبَ. فقد أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك الأمويّ واليه بالمدينة أبا بكر بن حزم أن يجلده مائة سوط ويصبّ على رأسه زيتا ويشهّر به لتهمة اتّهم بها، وجاء بنو زريق واحتملوه وخلّصوه من التعذيب، وواصل ابن حزم اضطهاد الأحوص بجلده والطواف به ثمّ نفيه إلى دهلك في محملٍ عريانا، وكان الأحوص يقول وهو يطاف به :

ما من مصيبة نكبة أمنى بها
إلا تُعظِّمني وترفع من شاني
... إنّي إذا خَفي اللّئامُ رأيتني
كالشّمس لا تخفى بكلّ مكان

ونكب الأحوص وامتحن مرّة أخرى حين هجا بني المهلّب فاغتاظ أحد أتباعه من الولاة فبعث إليه بزقّ من خمر فأدخل منزل الأحوص ثم بعث إليه خيلا فدخلت منزله فصبّوا الخمر على رأسه ثم أخرجوه على رؤوس النّاس فأتوا به الوالي وهو الجرّاح بن عبد الله الحكمي بأذربيجان فأمر بحلق رأسه ولحيته وضربه الحدّ، وهو يقول : ليس هكذا تضرب الحدود فجعل الجرّاح يقول : أجل

ولكن لما تعْلَم. ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر فأغضى له عليها.

ويختلف في سبب جلد ابن حزم للأحوص والطّواف به ونفيه. ولعلّ هناك أسبابا عديدة تضافرت على عقابه والتنكيل به، فقد كان ينسب بأشهر نساء المدينة نسيبا يتغنّى به المغنّون والمغنيات، فيشيع في النّاس. وقد نهي على ذلك فما انتهى، فكتب أهل المدينة إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فأمر عامله بها بتأديبه.

ويقول الأصبهاني إنه كان «أوسع قومه هجاء فملأهم شرّا فلم يبق له فيهم صديق إلا فتى»[8].

وقد حاول الأحوص بمدائحه الكثيرة لخلفاء بني أمية أن يصفحوا عنه ويرجعوه إلى المدينة، لكن لم يفز بذلك إلا في عهد يزيد بن عبد الملك إذ دسّ له مع حبابة المغنية فغنّت شعره في مجلس من مجالسه فسأل عنه ثم أطلقه وخلّى سبيله ووهب له أربعمائة دينار، وفرح أحبّاء شعره بإطلاق سراحه وبشروا بالخبر السعيد.

---

(8) الأغاني : ج 4، ص 46.

الصّنوبري شاعر الرّياض

هو أبو بكر أحمد الصنوبري المتوفى سنة 334هـ، لقّب بشاعر الرياض لأنّه كان يبوح دوما في شعره بعشق الربى المزدانة بالحلل المرصعة بشتى الزهور من خيري وسوسن وبهار ونرجس وأقحوان وورد. وتكثر لفظة روض ومشتقاتها في قصائده، كما تكثر في شعره أوصاف الزهور، فيصورها في أبهى الصور، ويشبهها بمحاسن الحسان، ويشخصها لنا تبتسم وتضحك، يقول :

أمّا الرّياض فعشقها عشق
لم يبق فيّ لغيرها طُرقْ
.. زهر الرّياض إذا هي ابتسمت
تدعو فيسرع نحوها الخلقُ
فتظلّ تنطق وهي ساكتة :
إنّ الرياض سكوتها نطق

والصنوبري ولوع بوصف الرياض وذكرها ورسم الألوان التي تزيّنها والبهجة التي تشيعها في القلب، ويتردّد هذا المعنى في شعره خاصّة في روضياته :

أمًّا الرّياضُ فقد بدتْ ألوانُها
صاغتْ فنونَ حُليّها أفنانُها

دَقَّتْ معانيها ورقّ نسيمها

وبدتْ محاسِنها وطاب زمانها

نُظمت قلائدُ زهرها كجواهر

نُظمت زمرّدها إلى عقيانها

والصنوبري لا يصوّر الورود ومختلف الأزهار والرياحين ونسيم الرياض فقط بل يصف أيضا الثّمار التي تكلّل الأشجار. ومن قصائده في الثمار نذكر هذه الأبيات في السّفرجل :

لك في السّفرجل منظرٌ تحظَى به

وتفوزُ منه بشمّه ومذاقِه

... يحكي لنا الذَهَبَ المصفَّى لونُه

وتزيد بَهْجَتُه على إشراقه .

لقد أحبّ الصنوبري الربيع، فضّله على سائر الفصول، فهو إذ يتغنّى به فلأسباب عديدة بعضها في هذين البيتين :

ما الدهرُ الا الربيعُ المستنير، إذا

أتى الربيعُ أتاك النَّوْرُ والنُّور

الأرضُ ياقوتةٌ، والجوّ لؤلؤةٌ

والنبْتُ فَيْرُوزَجٌ والماء بَلُّورُ

هكذا تبدو الأرض، فهي تتحلّى بالعشب وشتى الأزاهر، والجوُّ صافٍ رائق، وتفوح الرّياحين، ويأخذ الصنوبري في تعدادها. فبعد أن يذكر الورد والنّرجس يقول :

هذا البنفسجُ، هذا الياسمين وذا الـ

نّسرينُ، ذا سوسنٌ في الحسن مشهورُ

فالصّنوبري خبيرٌ بأنواع الزّهور، يبهجه منظرها الأنيق وقد بلّلتها قطرات المطر فكلّ نوع من هذه الزهور :

تَظَلّ تنثر فيه السّحْب لؤلؤها
فالأرض ضاحكةٌ، والطير مسرورُ

فالشاعر سعيدٌ بالطبيعة، وقد نقل سعادته للأرض فإذا بالبهجة تنتشر في الدّنيا، وإذا بالعصافير بأنواعها المختلفة تهزج وتغنّي يقول :

حيثُ التفتَّ فقُمْرِيٌّ وفَاخِتَةٌ
فيه تغنّى وشَفْنِينٌ وزَرْزورُ
إذا الهزاراَن فيه صوَّتا فهما السّـ
رْنَايُ والنَّايُ، بل عودٌ وطَنْبُورُ

وتمثّل هذه العصافير عند الصنوبري جوقةً من الفنّانين العازفين والمطربين فيتأثر بنشيد هذه الطيور، ويهتف قائلا بكل تأثر وطرب :

تبارك الله ما أحلى الرّبيعَ فلا
تُغْرَرْ فقائسهُ بالصّيف مغرور
... من شَمَّ ريح تحيّات الربيع يَقُلْ
لا المسك مسْكٌ ولا الكافور كافور

* * *

والصنوبري كثيرا ما يتغنّي بالطيور والزهور والرياض والأرض الطيبة الخضراء والنّبت المكلّل بالنّدى أو بقطرات المطر، يبدأ عادة قصائده بوصف ما في الطبيعة من مباهج ومحاسن حيث :

غرّد في غصنه الهزارُ
واختال في روضه البهارُ

ويسأل الصنوبري قارئه تساؤل العارف، معجبا بالنرجس وبمنظره الذي يشبه عين حسناء، يقول : «أرأيت أحسن من عيون النّرجس؟» إذ هو :

دُرٌّ تشقّقَ عن يواقيتٍ على
قُضُبِ الزُّمُرّدِ فوق بُسْطِ السّندسِ
أجْفَانُ كافورٍ حُبِينَ بأعْيُنٍ
من زَعْفَرَانٍ ناعماتِ الملمس

وقد اتّخذ الصنوبري منهجا أدبيا جديدا في عصره،، فهو لا يبدأ قصائده بوصف الأطلال كالشّعراء القدامى من أصحاب المعلّقات وغيرهم وإنّما يبدؤها غالبا بوصف الرّياض وقد صرّح هو بهذا المذهب الأدبي قائلا :

وصفُ الرّياضِ كفَانِي أن أقِيمَ عَلَى
وصف الطّلُولِ فهل في ذاكَ من باسِ؟

ويدعو إلى هذا المذهب الفنّي في نظم القصائد، ويعتبر الشعراء المتغنّين بالرّياض والزّهور والأطيار من أملح الناس، يقول :

يا واصف الرَّوضِ مشغُولا بذلك عن
منَازِل أوحَشَتْ من بعد إيناس
قل للّذي لام فيه هل ترى كلفا
بأملح الأرض إلاّ أملح النّاس

وله في وصف إحدى الرياض :

وروضة أريضة الأرجاء

من ذهب الزّهر، لُجين الماء

يجري على زمرّد الحصباء

بين استواء منه والتواء

وقال عن روض آخر :

كأنّ أشجاره قد ألبست حُلَلاً

خُضْراً وقد كُلّلت دُرًّا ومرجانا



محمدعلي والي مصر

الشّيخ حسن العطّار ومقامته في الفرنسيس

عثرنا بأحد المجاميع الخطية بدار الكتب الوطنية (رصيد حسن حسني عبد الوهاب) رقم 18082 على نصّ غير معروف للشيخ حسن العطار (1766 ـ 1835)، عنوانه «مقامة في الفرنسيس»، وقد عرّفنا بهذا المجموع في مقدمة تحقيقنا لمقامات جلال الدّين السيوطي الأدبيّة والطبيّة التي نشرناها سنة 1988 عن دار سحنون بتونس ودار الدعوة باسطنبول. وكان حسن العطار شيخا للأزهر من سنة 1830 إلى سنة وفاته، وألف العديد من الكتب منها حواش على كتب في النحو والتوحيد والأصول والبلاغة، وله تأليف في الإنشاء وأشعار رقيقة.

عرف به الدكتور أنور لوقا في كتابه «رفاعة الطهطاوي» الذي نشره بسوسة عن دار المعارف للطباعة والنشّر سنة 1997 بتقديم أستاذنا المنجي الشّملي أنه «رجل رحالة وأديب مرموق (...) كان يمتاز من بين أساتذة ذلك العهد بعقلية تقدمية تستطلع الحديث وتؤمن بالتطور، كان حسن العطار عالما، نتيجة لميله ورغبته، فقد أحب العلم ونزع إليه على الرغم من إرادة أبيه الذي كان يود أن يورثه تجارته وعطارته، لذلك أصبح العلم لديه معرفة

توسع الفكر لا استظهارا وتكرارا، لقد احتل التفكير في تدريسه محل الحفظ، واحتلت الحركة في حياته مكان الجمود، وكان قد اتصل به بعض ضباط بونابرت ليتعلموا اللّغة العربية فلم يحتقرهم ولم ينبذهم، بل جاورهم وحاورهم، وعلّمهم وتعلم منهم، وفطن إلى أهمية كتبهم التي لاحظ ـ دون أن يستطيع قراءتها ـ أنها كتب منوّعة تعالج شتى موضوعات الدنيا، وفطن إلى أهمية منهجهم المتحرر من منطق القرون الوسطى، وبساطتهم المباشرة في التعبير عن أفكارهم، وأحسّ وتنبأ بضرورة تجديد الحياة العقلية في القاهرة، وكان مولعا بالجغرافية» (ص 66 ـ 67).

ومقامة الفرنسيس التي ننشر نصها لأول مرّة عن مخطوطة تونسيّة، قيلت بوحي من لقاء الأديب العطار بأحد الفرنسيين العلماء فأعجب به وبزيّه وشكله وعلمه. وتندرج في إطار التأثيرات الفكرية التي كانت للحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر والتغييرات التي أحدثتها في العقول، والرّجة التي هزّت بها النفوس.

وكانت لهذه الحملة التي شنها نابليون على مصر في جويلية 1798 غايات عديدة خاصة منها توسيع النفوذ الفرنسي خارج البلاد الأوروبية وسد طريق الهند في وجه الإمبراطورية الإنكليزية وخاصة القضاء على السيادة العثمانية في المشرق بسلخ مصر عن اسطنبول وإبداة المماليك. وكانت هذه الحملة استعمارية في جوهرها غير أنها تعتبر في نظر بعض المستشرقين والباحثين العرب من الناحية الثقافية حدا فاصلا بين عهدين ، وعلامة على بداية عهد النهضة

العربية. ذلك لأنّ لها وجها ثقافيا علميا إلى جانب وجهها الاستعماري العسكري البغيض، فقد اصطحب الامبراطور الفرنسي معه إلى مصر عددا من العلماء والأدباء والمهندسين والمصورين، وأنشأ في مصر مخابر أجريت بها تجارب علمية وقام بعض العلماء بعمليات تنقيب على الآثار الفرعونيّة. وبرزت الصحافة والطباعة، وأحدث مصنع للورق، وقد صدرت إذ ذاك بمصر نشريتان شهيرتان الأولى «بريد مصر» (Le Courrier d'Egypte)، وهي ناطقة بلسان الحملة وتصدر كل أربعة أيام وتنقل أخبار الحملة بما فيها من ادعاءات لتبيّن مجد نابليون بونابرت وتمهّد له الحكم بفرنسا والثانية مجلة «العشرية المصريّة» (La Décade Egyptienne) وهي نشرية علمية تضم أبحاث المجمع العلمي الفرنسي بالقاهرة ومناقشات أعضائه وتسجل نشاطهم وأعماله.

وفي مقامة الشيخ حسن العطار نجد أصداء لهذه الحملة أو نلمس موقفا منها لعالم أديب من أهم علماء مصر وأدبائها في عصره. ولئن أشاد الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» بحب الفرنسيين للعلوم وبطريقتهم في الحياة ونوّه بالمخابر التي أقاموها فإنه قد اعتبر هذه الحملة بلاء عظيما امتحن به المصريون، وفسّر ذلك بأنّ الله قد عاقبهم بها لسوء أفعالهم.

ويحدّثنا الشيخ حسن العطار في هذه المقامة الشيقة، الطريفة عن لقاء أجراه مع أحد أفراد هذه البعثة العلمية بالأزبكية، ويصف حب الفرنسيين للعلوم الفلسفية واقتناءهم للكتب.

ويتحدث تارة عن فرنسيين ذكور وأخرى عن نساء مائسات القدود، ذوات وجوه كالشموس ولا تفهم بمن يتغزل!

وفي المقامة إفادات عديدة أخرى تخص الهلع الشديد الذي بثته الحملة العسكرية في القلوب ثم التقدير الكبير للعلماء من أعضاء الحملة نذكر منهم برتولي (Bertholet) ومونج (Monge) .

* * *

وتعتبر الكتب الفرنسية التي تتناول تاريخ مصر الحديث أن النهضة العربية ابتدأت في عام 1798، السنة التي شن فيها نابليون بونابرت حملته على مصر، ويتحدث المؤرخون الفرنسيون أن هذه الحملة أحدثت تغييرات في العقول وارتجت لها النفوس رجة كبرى.

ويردد بعض الباحثين العرب خاصة من المصريين هذا القول فيعتبرون هذه الحملة علامة على بداية النهضة العربية. ويؤكدون على وجهها العلمي والثقافي غير ذاكرين وجهها الاستعماري العسكري، إلا أننا نعلم أن هذه الحملة استعمارية ترمي إلى الاستيلاء على الأرض والعباد. ومن خطاب لنابليون إلى جنده في إيطاليا نقتبس هذه الفقرة : «أيها الجند، انتم عرايا... سأقودكم إلى أغنى الحقول في العالم، ستكون المقاطعات الثرية والمدن الكبيرة في قبضتكم، وستجدون فيها الشرف والمجد والثراء». وتعلق الدكتورة ليلى عنان في كتابها «الحملة الفرنسية تنوير أو تزوير» الصادر في سلسلة كتاب الهلال بقولها : «عمل الجيش بالوصية، ضباطا وجنودا، كانوا بلا أحذية وبلا ملابس أو رواتب،

لا يكاد يصلهم طعامهم إلا بشق الأنفس، وكانوا على شجاعتهم في المعارك، شرسين في نهبهم وسلبهم» (ص 76 ـ 77).

ويفيدنا كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» لعبد الرحمان الجبرتي، وهو شاهد عيان على الحملة، الكثير. فقد كانت الحملة تتحدى مشاعر المصريين بصفتها التعسفية ثم بإفرازها لظواهر اجتماعية نجمت عن الاحتكاك بالفرنسيين منها ظاهرة البغاء العلني، وارتداء اللباس الملون ومعاقرة المسكرات وتمرد بعض الفئات الاجتماعيّة على الأوضاع المألوفة والموروثة.

وقد اعتبر الجبرتي هذه الحملة بلاء امتحن به المصريون مفسرا ذلك بأن الله قد عاقبهم لسوء أفعالهم. ولئن أشاد الجبرتي بحب الفرنسيين للعلوم وبطريقتهم في الحياة وإقامتهم للمخابر فإن ذلك يعتبر نقدا غير مباشر للحياة العلمية والثقافية بمصر.

ويحدثنا الجبرتي عن هذه السنة التي وقعت فيها الحملة فيقول : «وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها، فمنها توالي الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى، فهدموا تلك الأخطاط والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت، المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام، والمنارة العظيمة ذات الهلالين. واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوسى إلى باب الحديد حتى بقي بعد

ذلك كله خرابا متصلا واحدا، ونبشوا ما بها من القبور فوجدوا الموتى في توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى». (انظر ص 15 ـ 16 من الكتاب المذكور).

وفي مقامة الفرنسيس للشيخ حسن العطار نقرأ إزعاج الفرنسيين الناس يوم الثلاثاء، فقد «جعل أكثرهم في الشوارع مهرولا لهاث»، يقول : «خرجت هائما من داري، لا أدري أين يكون قراري، فقطعت السكك والشوارع، وأنا من ترقب الهلاك فازع، لا أستقر بمكان، ولا ألوي على أحد عنان، حتى ساقني القدر المحتوم، إلى الأزبكية التي هي مسكن القوم، فخالط الوهم مني الخاطر، وأراني أني بهذه الحركة مخاطر، لأني قد وقعت، فيما منه فررت، ثم ثبّت جناني، وقوّيت أركاني، وأعملت الفكرة، في هذه الكرّة، فأنتج لي البرهان، بلوغ الأمن والأمان، لأن أهل هذه الجهة لهم مسالمون، ولكثير منهم مخالطون، لم يقع منهم نزاع ولا شيء، ولا كرّ في مقاتلتهم ولا فر، وكنت أسمع من أهل العرفان، وممن جال في الأقطار والبلدان، أن القوم لا يشددون الوطأة إلا على من حاربهم، ولا يعاملون بالرهبة إلا من نابذهم وغالبهم».

ونلاحظ أخيرا فشل الحملة فشلا ذريعا إذ أن نابليون كما تذكر بعض كتب التاريخ قد هرب يائسا من مصر «تاركا جيشه البائس لمصير مجهول لا يعلم نهاية عذابه إلا الله»، فقد غادر مصر خلسة في عام 1799 بعد عام فقط من دخولها ليستولي على الحكم في فرنسا بعد ثلاثة أشهر إثر انقلاب يسانده الجيش في 9 نوفمبر 1799.

الشّيخ حسن العطّار
ومقامته في الفرنسيس

وهذه مقامة الأديب الرئيس، الشيخ حسن العطار في الفرنسيس :

نص المقامة

حدّثني بعض الإخوة، من أهل الخلافة والنشوة، أنه لما أزعج الفرنسيس الناس يوم الثلاث، وجعل أكثرهم في الشوارع مهرولا لهاث، خرجت هائما من داري ولا أدري أين يكون قراري، فقطعت السكك والشوارع، وأنا من ترقب الهلاك فازع، لا أستقرّ بمكان، ولا ألوي على أحد عنان، حتى ساقني القدر المحتوم، إلى الأزبكية التي هي مسكن القوم، فخالط الوهم منّى الخاطر، وأراني أنّي بهذه الحركة مخاطر، لأنّي قد وقعت، فيما منه فررت، ثم ثبّتّ جناني، وقوّيت أركاني، وأعملت الفكرة، في هذه الكرّة، فأنتج لي البرهان، بلوغ الأمن والأمان، لأنّ أهل هذه الجهة لهم مسالمون، ولكثير منهم مخالطون، لم يقع منهم نزاع ولا شر، ولا كرّ في مقاتلتهم ولا فرّ.

وكنت أسمع من أهل العرفان، وممن جال في الأقطار والبلدان، أن القوم لا يشدّدون الوطأة إلاّ على من حاربهم، ولا يعاملون بالرهبة إلا من نابذهم وغالبهم، وأنّ للبعض منهم إلى غوامض المعارف تطلّع، ولانبائها لديهم عند الاختيار تودّد وترفّع، وقد أشربوا في قلوبهم حبّ العلوم الفلسفيّة، وحرصوا على اقتناء

كتبها وإعمال الفكرة فيها والرويّة، يبحثون عمّن له بها إلمام، ويتجاذبون معه بأطراف الكلام.

ثم لما استقرّيت بالأزبكيّة، وتخلّصت من هذه البليّة، ذهبت إلى دار صاحب لي تسرّني رؤيته، وتنشرح لمخالطتي له رويّتي ورويّته، قد أحرز قصب السبق في ميدان هذه العلوم، وصار هو المشار إليه في مصرنا بين أرباب هذه الفهوم، فصادفت بالحارة التي فيها مثواه، وبجانب داره التي بها مأواه، فتية منهم برزن كالشموس، وهنّ يتمايلن تمايل العروس، بوجوه سدل الحسن عليها جلبابه، وقد صيّر رماح القدود أعلاما حين أرخى عليها ذؤابه، فقد رأيت تتبعها من العشاق وأجناد، وتميل معها حيث مالت مع الهوى في كل واد، فتطلعت إليهنّ تطلّع الهائم إلى الورود، ووقفت أنظر إلى حسن تثنّي هاتيك القدود، ففطنٌ منّي مارمته، وعرفن المعنى الذي قصدته، فمال الجميع إليّ، وابتدأن بالتحية عليّ، وأراني فتى منهم كتابا، وجدد معي كلاما وخطابا، فإذا عربية خالصة من اللكنة، وألفاظه معرّاة عن وصمة الهجنة، وأخذ يتصرّف ببعض كتب الأفاضل الأكابر، وذكر ما تحويه يده من الكتب والدفاتر، وشرع في التعداد والتعريف، حتى ذكر تذكرة الطوسي[1] والشفاء[2] معبّرا عنه بالشفاء الشريف، فخالطني من

1) هو محمد بن الحسن بن علي الطوسي المفسر. توفي سنة 460هـ له كثير من التآليف.

2) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض.

ذلك العجب، ورنّحتني إليه نشوة الأدب، وزاد إعجابي به أنّي حين قلت له أني ضيف بجاركم ألم، أنشدني على الفور :

أمن تذكّر جيران بذى سلم[3]

وأخبرني أنه نقلها من العربية إلى لغته، وهي من جملة ما استقرّ بمحفوظته، ثم لما أخذ الحديث منّي ما أخذ، وغلب شيطان المحبّة عليّ واستحوذ، عولّت على الانصراف، وقد خالط تعجّبي منه الشغاف، سألني في البكور إلى داره، لأرى ما اجتمع عنده من كتبه وأسفاره، فذهبت للمكان الذي أعددته للمبيت، وعلمت أنّي بحسنه دُهيت، فتحرّكت منّي صبوة تقادم عهدها، وتقوّت عندي نشوة أدب كان قد ضعف أودُها، وطفقت طول الليل سهران، وأنا لرؤية الصباح كالولهان، وحملني عدم النوم والثبات، على أن أنظم فيه أبيات، فقلت (البسيط) :

من الفرنسيس ظبي سحرُ مقلته
عند المحبّ له في القلب تأسيس
قد لاح في حلل سود فخلت سنا
صبح عليه من الأستار حنديس
روض من الحسن لا تدنو إليه يد
ومطلب بظبى الألحاظ محروس
مهفهف القدّ قد أرخى ذوائبه
كأنّه غصنٌ في الرّوض مغروس
رأى المحبّة من عيني فخاطبني
بدرّ لفظ به لطفٌ وتأنيس

3) أول صدر من متن البردة للإمام البوصيري.

تجانس الحسن في مرآه حين غدا
بين الكلام وبين الثغر تجنيس
وصاد عقلي بلفتات فواعجبا
حتّى على العقل قد تسطو الفرنسيس

ثم لما سطع صارم الصبح، وتقلّص ذيل اللّيل جنحا بعد جنح، أسفرت الأماني عن مرآه، وتبسّم وجه الزّمان لي بلقاه، فاجتمعت معه في عصر ذلك اليوم، وهو مع فتية من هؤلاء القوم، كل معاني غوامض المعارف يقتفيها، ويحيل ذهنه في تحصيل دقائق الأدب ويعتفيها، فلما استقر بي الجلوس، أخذن يُدرن من المنادمة على سمعي حميّا الكؤوس، وأرينني من الكتب الصّغير والكبير، والنّكير عندي والشّهير، وكلّها في العلوم الرياضية والأدبية، وأطلعوني على آلات فلكية وهندسية، وتحادثن معي في مسائل من تلك العلوم، وكتبن عني بعض هاتيك الفهوم، وسألنني عن حل بعض أبيات البردة، وهي بأيديهن مكتوبة بالعربي في نسخ عدة، ثم أرينني من أبيات الشعر نتفا، وسألنني عمّا دقّ منها وخفي، وأخبرني بعضهم أن ببلادهم ديوان المعلقات السبع، وأن عندهم من دواوين الشّعر بلغتهم ما يطرب معناه السمع، وكانوا كلّما سألوني عن تفسير كلمة لغوية راجعوها في سفر نفيس، ألف في اللغة على طريق الجمهرة[4] باللفظ العربي وترجم بالفرنسيس،

4) جمهرة الكلام لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (223 ـ 321هـ)، ابتدأ هذا المعجم بالثنائي أب ثم أت ثم أث إلى آخر الحروف، وبعد ثنائي أتى على الثلاثي ثم الرباعي ثم ملحق الرباعي وكذا الخماسي والسداسي وملحقاتهما، وذكر الألفاظ الثلاثية مع مقلوبها.

[66 ب] وكتبت لهم ببعض المجاميع أبيات، وفسّرت لهم منها بعض كلمات، فمن ذلك بيتان كنت نظمتهما سابقا، زمن أن كنت في محاسن الملاح شائقا، وهما :

خُذْ لِي أمَانًا من لواحظك التي
ملأتْ فؤادي أسهما ونبالا
سفكتْ دمي وهو الحرام إراقة
فبأي ذنب صيّرتْه حلالا

ثمّ عزّزتهما بقصيدة بها البديهة سمحت، وعلى بعض لغتهم اشتملت، وهي مما اقترحوه عليّ، لإرادة اختبار ما لديّ، وهي :

من الفرنسيس غصن بان
قد لاح بالحسن في جنوس
له محيّا كبدر تمّ
من تحت ليل من اللبّوس
أرانيَ الدرّ في ابتسام
تجري به خمرةُ الكؤوس
ألحاظه السود فاعلات
بمهجتي فعل خندريس[5]
يا قلب صبرا على هواه
فالحبّ فيه ردى النّفوس
الوصل فيه غدا محالا
إذ ليس يرثي إليّ رسيس[6]

---

5) الخندريس : الخمر.

6) الرّسيس : الفطن العاقل.

اقــول : وصــلا، يــقول : «نونو»
اقـول : هجرا، يقول «سي سي»

فأخذهم من ذلك الطرب، وتعجّبن مني غاية العجب، وطفقن في بث المديح لدي، والإفراط في الثّناء عليّ، وحثثنني علي الملازمة عندهم، وأروني أن هذا طلبهم وقصدهم، فسوّفت في الإجابة، وأضمرت على عدم الإنابة، علما منّي بأنّ هذا أمر تفوّق على منه سهام الملام، وترمقني بالعداوة والاحتقار لأجله كافة الأنام، فرجعت لرشدي أقتفيه، واستغفرت اللّه مما كنت فيه.



نابوليون بونابارت

رحلة محمّد الأولجي إلى باريس وحديث عن الأوبرا

أرسل السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان الرحالة محمد أفندي الأولجي إلى باريس محملا برسالة من الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الملك الفرنسي لويز الخامس عشر وقام بهذه الرحلة في 4 ذي الحجة 1132هـ / جانفي 1710م وقد عرّبت تعريبا واهنا. وعنوان هذه الرحلة «في بيان ما ذكره محمد أفندي الأولجي المرسول من طرف الدولة العلية إلى فرنسا .وما شاهده هناك» وكان الوصول إلى مرسى طولون يوم الجمعة 20 محرم 1133م / مارس 1710م. ونشرت في ذلك الوقت وحين اطلعت على هذه الرحلة وقرأت ما يتعلق بالأوبرا والمسرح تساءلت هل اطلع عليها أحمد بن أبي الضياف ومحمد السنوسي وتأثر كلاهما بها في حديثهما عن المسرح في رحلتيهما إلى باريس، لذلك أضع هذا النص بين أيدي الباحثين في موضوع المسرح وتاريخه في العالم العربي. وقد اطلعت على هذه الوثيقة في مكتبة فرانسوا ميتران بباريس، ورقمها (610) Houghton librairie SM 191.

تقع الرحلة في 37 ورقة، والنص الذي نقدم يبتدئ من الورقة ظهر 19 وهذا هو النص وقد تركناه على حاله وهو مليء بالأخطاء :

النص :

في مدينة باريس يوجد عندهم أشكال لعب خصوصية يسموها أوبرا يلعبوا فيها بصناعة عجيبة. وتجتمع لذلك أناس كثيرة حتى أن الأكابر والوصي والمدبر المملكة يذهبون لذلك دفعات شتى حتى أن السلطان بعض الأحيان يأتي للحضور والنظر لذلك، فحضرنا لنرى هذا اللعب، وذهبنا إلى موضع قريب لصراية الوصي المذكور لأنه مخصوص بالنّاس على مراتبهم وقد أجلسوني في المكان المعتاد لجلوس السلطان فيه. فكان المكان مغشّى بالمخمل الأحمر، وجاء الوصي ليحضر اللعب، فجلس في مكانه ثم إن المكان بعد ذلك أمتلى بالناس من رجال ونسوة، وكان هناك موقع آلة الموسيقى نحو في مائة صنف.

وقبل دخول الليل بساعة بعد سكرهم على عادتهم قفلوا الأبواب وقادوا الشموع الدهنية والعسلية بكثرة عظيمة الوصف، وزينوا ذلك المكان في هذه الأوقات بزيادة وافرة في بقية الأيام، وكذلك الدّرابزون والعواميد والسقوف كانت كلّها مذهبة، والنسوة اللّواتي أتين كلّهن بأنواع الثياب المثقّلة من الحجارة المعدنية، ونور الشمع كان زايد الوصف بهجة للغاية، ولا يمكنني وصف ذلك لكثرته وكان موضوعا سترا في الوجه على الجميع كله على موضع اللعب، وبعد حضور الناس وجلوسهم في أماكنهم رفعوا الحجاب فظهر من ورايه صرايا عظيمة ذات فسحة واسعة كان أصحاب اللعب المذكورون والنسا جميعهم بلباس المرسح والنسوة عدتهم عشرون فقط، فايقات الحسن والجمال والقد والاعتدال،

وهم لابسات الثياب المخصوصة ذات الشعاع والبهجة في تلك الأوبرا، يحضروها وبدين يغنّين بسوية وكن يمددن أصواتهن على أصوات الموسيقى. ثم رقصن مدّة من الزمان وبدين في الأوبرا.

فمادة هذه الأوبرا هي حكايات إلا أنهم يلعبوها في المراسح كأنها خبر حقيقي. وجعلوا الكل حكاية كتاب وعدتها ثلاثون كتابا، ولكل واحدة لعب يخصّه لما كنا فيه، فهذا كان سببه وجد أن سلطانا عشق ابنة سلطان مثله فطلبها منه. فأما هذه البنت كانت عاشقة ابن سلطان غيره، فكانوا يقلدوا ذلك في المرسح جميع ما كان يصور ما بين السّلطان والبنت مثلا لما كان السّلطان يقصد الذهاب إلى بستان البنت فالصرايا التي كنا نشاهدها في المرسح كانت تبتدل وكانوا يحضروا موضعها بستان حاو أشجار ليمون ونرنج وغيره.

ولما كان السلطان يقصد الكنيسة ليقدم التضرع والصلاة كانوا في أدنى دقيقة واحدة يبدلوا المرسح ومن بستان كانوا يجعلوا كنيسة كاملة.

وآخر الأمر إنّ السّلطان العاشق والبنت العاشقة المذكورة التجآ إلى امرأة ساحرة عرافية. فالسلطان قصده جلب البنت إلى محبته، والبنت قصدها يبغضها هذا السلطان ويحبها ذاك الولد المذكور. فهذه الساحرة العرافية حضرت في المرسح وأظهرت من السحر حركات مختلفة، أحيانا كانت تورينا نيران شاعلة وأحيانا قتالا واقعا بين عساكر أزلام وخيالة.

وكنا نشاهد أشخاصا نازلة من السحاب إلى الأرض وأشخاصا

يطيرون من الأرض. فحاصل الكلام أنها أظهرت من سحرها الأمور العجايب، والأشيا الغرايب، مع عدو وبرق وليس الخبر كالعيان.

وكانوا يظهرون أحوال العشق جميعا على طريقته وأنواعه بهذا المقدار من العيافة (؟) والصناعة. حتى أن الذي كان يشاهد رقة السلطان وتواضعه للبنت المرموقة لكان ينحب ويبكي من النظر إلى هذه الأوبرا لأنه أحد كبار الناس.

ومن حيث أن مصاريف هذه الصنعة كثير والفايدة وافرة جدا قد عيّنوا منها جزء كثير للميرة لخزينة السلطان. وهذه الأوبرا مخصوصة في مدينة باريس، فبقي المرسح مقدار ثلاثة ساعات ثم رجعنا إلى محلّنا.

وبعد مضي كم يوم أتى إلى عندي مدخل القصاد وعرفني أنهم سيلعبون مرسح آخر في صراية السلطان ودعوني إلى ذلك لأجل بسطي وانشراحي وأنّهم يجلسوني في مكان واحد مع السلطان. وعن يمينه يكون أقرباؤه وأكابر دولته، وعن يساره قصاد الملوك، وإنّي ساتقدم عليهم كلهم بجلوسي قرب الملك المذكور.

ففي صراية السلطان على الديوان خانه يوجد خانة أخرى جعلوها لأجل الرقص والجمعيات وهي واسعة ومكلفة أكثر من الأولى التي رأينا فيها المرسح. فحيطانها من المرمر الملون وكله مذهب ومزين بالتصاوير العجيبة والكراسي فيها على أربعة صفوف حتى إلى السقف الواحد فوق الآخر والدرابزون كذلك من الرخام الأزرق بلون البحر وكلّ شيء في هذه الخانة كان جميل يشرح صدر الناظر إليه. وكان جاء إلى هذه الخانة جملة نسوة أكابر بلباس

ظريف مستغرق في حجارة الجواهر، وكان كل واحدة منهن لها موضع فلما وصلت إلى عندهم أتوني بكرسي وأجلسوني نحو مقعد السلطان بقرب كرسيه على يساره، وكان من جملة الخلق في هذا الموضع ما لا يحصى أكثر من الأول، ثم في أثنا ذلك قدم السلطان وجلس على كرسيه. وعن يمينه جلست بنت عمه، وعن يساره ابنة عمه الأخرى بثياب مستغرقة في الجواهر، وكنت أنا في جانبها. وكان في وجهنا ستر مصنع بالنقش العجيب. فلما رفعوه رأينا المكان الذي يلعبون فيه ويرقصون. وهم أنفار بغاية الجمال، حسان الوجوه والأبدان كأنهم الشمس في جلايها، وكان قد صوروا تشبيه الشمس وهي طالعة من أفقها وجعلوا جرمها من الذهب مقدار الصينية الكبيرة المشغولة بأنواع الصناعة الزايدة، وورايها عدة شموع تلتهب كأن أنوارها أشعة الشمس الخارجة منها. وكان هناك أرباب الموسيقى فجعلوا يلعبون في أنواع الآلات، وكذلك الذين في المرسح كانوا يرقصون وهم أولاد الأكابر والأمرا والزعما كلهم أمثال أقران في القدر والقامة والسن. وكانوا يلعبون على دقة النوبة ثمانية ثمانية في زي واحد ولبس واحد مزركش بالمخايش على أنواع مختلفة. وكانوا مشكلين في روسهم بالريش المصنع في برانيسهم مما يزيد في حسنهم كثيرا، ثم إنهم لعبوا في المرسح على هذه الحالة كل واحد بنوبته، وكان لعبهم في المرسح من العجب العجيب الغريب حتى فرغوا من ذلك وانتهوا ورجعوا بعد رجوع السلطان إلى مكانه وأنا كذلك توجهت إلى محلّي.



الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور



الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور



الأستاذ أحمد الجلولي

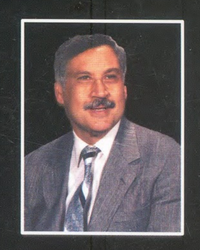
صدر للمؤلف

- قسمة وطرح : مجموعة قصصيّة، تونس ـ ليبيا 1977
- رسالة المناعي إلى أحمد باي، تحقيق، تونس 1977
- أبحاث في الأدب والتاريخ، تونس 1979
- الجزآن الثالث والرابع من اتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف 1979
- ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني، جمع وتحقيق، تونس ـ ليبيا 1981
- رهين المحبسين أبو العلاء المعري، تونس 1981
- محمود المسعدي وكتابه حدث أبو هريرة قال، تونس. 1982
- محرز بن خلف لزين العابدين السنونسي (تحقيق) 1981
- الامتاع والمؤانسة للتوحيدي 1983
- أبو عثمان الجاحظ، تونس 1983
- في الإصلاح والحنين إلى الأوطان، تونس 1984
- في النقد والأدب الشعبي، تونس 1984
- اللّيل يأتي، مجموعة قصصيّة، تونس 1985
- قضايا في النثر العربي المعاصر، سيول 1985
- مظاهر من الاتصال الفكري والأدبي بالغرب، بغداد 1986
- مقامات السيوطي، تحقيق، تونس ـ اسطنبول 1988
- البشير خريّف حياته ورواياته، تونس 1988
- من سيول إلى سنغافورة :رحلة إلى الشرق الأقصى، تونس 1988
- في الحضارة العربيّة بتونس، سوسة 1988

– طوق الحمامة لابن حزم 1988
– أبو القاسم الشّابي لزين العابدين السنوسي 1988
– النبيّان : ابراهيم الخليل ويوسف عليهما السلام، قصتان
للأطفال، تونس 1989
– عبد الله بن المقفع، تونس 1991
– دراسات ووثائق عن الحركة الاصلاحيّة بتونس، سوسة. 1992
– أمثال لقمان الحكيم : 6 قصص للأطفال، تونس......... 1992
– عبد الرحمان بن خلدون، تونس 1993
– الحنين إلى الأوطان في شعر ابن الأبار وحازم القرطاجني،
سوسة 1993
– أبو الطيب المتنبي، تونس 1993
– أشواق الليل، مجموعة إبداعيّة، تونس 1994
– الجنرال حسين، حياته وآثاره، تونس 1994
– المسافر، مجموعة قصصيّة، تونس 1995
– رادس عبر العصور، تونس 1995
– الحياة الأدبيّة بتونس في العهد الحفصي - جزآن، تونس. 1996
– الشعراء العشاق، تونس 1996
– المواسم والأعياد بتونس، تونس 1997
– الجواري المغنيّات، تونس 1997
– زين العابدين السّنوسي، تونس 1997
– تونس ملهمة الشّعراء، تونس 1997
– المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تونس 1998
– أبو الحسن علي الحصري القيرواني، تونس 1999
– مائة رواية تونسيّة، تونس 1999
– المرأة في عيون الشعراء 2000

- مراكز الثقافة والتعليم، بتونس في العهد الحفصي، تونس.. 2000
- الدّر الثمين في التعريف بأبي الحسن الشاذلي للحشايشي (تحقيق). تونس 2000
- الطاهر الحداد رائد الحداثة في العالم العربي 2001
- كتب الحب عند العرب 2001
- تاريخ القيروان الثقافي والحضاري 2001
- تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري 2002
- الهدية في العادات التونسيّة للحشايشي (تحقيق بالاشتراك) 2002
- ديوان أحمد بن أبي الضياف (تحقيق) 2002
- بلوغ الآماني في شرح قصيدة الدماميني (تحقيق) 2003
- مي زيادة وعشاقها الأدباء 2003
- عمر الخيام شاعر الحب والحياة 2003
- شعراء الغزل والخمريات 2003
- شخصيات تونسيّة 2004
- رحلة الشرق والغرب 2004
- الضوء المبين في التعريف بأولياء تونس الصالحين 2004
- الخلفاء والأمراء العشاق 2004
- الأدب بتونس في العهد الحفصي 2004
- حديقة الرياحين في التعريف بأربعة من عشاق العالمين رابعة العدوية والحلاج وابن الفارض وابن عربي 2004
- غرام الأدباء 2005
- صالح سويسي القيرواني رائد الاصلاح الاجتماعي بتونس 2005
- التسامح والاصلاح في فكر المصلحين التونسيين 2005

الفهرس



هذا الكتاب عن أعلام يمثلون علامات مضيئة لازدهار الحضارة والفكر والأدب في بلاد المغرب والمشرق، منهم أدباء بلغوا القمة في الأداء الفني والأدبي، ومفكرون عظام ارتقى الفكر العربي الإسلامي على أيديهم.

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين، قسم خاص بعدد من أعلامنا المغاربة من التونسيين، وآخر يهم أعلاما من المشرق.

مما يحتويه القسم الأول فصل عن ابن خلدون عاشقا لتونس ونص فريد عن لقائه بتيمورلنك، وآخر عن رأيه في الموسيقى وفصول أخرى عن ملوك الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة الفاطمية بالقيروان وعن ابن هانئ وابن حمديس وفصل خاص بإجازتين للشيخين محمد الطاهر ابن عاشور وابنه محمد ال

أما القسم الثاني فيضم فصلا عن علاقة هارون الرشيد بشارل

عن المأمون وحركة الاعتزال ومخطوطة تونسية فريدة عن الحملة

على مصر بقيادة نابليون، ونصا فريدا عن رحلة قام بها رحالة إلى

أوائل القرن الثامن عشر الميلادي إلى جانب نصوص أخرى...



الثمن : 10د